القسم الأول

اللّه والإسلام على طريقتي

obeikandl.com

(١)
يا حبيبى يا ربنا

عبرت الكلمات أمامى بسرعة، لم ألتفت إليها، أحدهم يكتب على صفحته بالفيس بوك منتقدا اللزمة التى كررها الممثل مصطفى شعبان فى مسلسله " مولانا العاشق"، يا حبيبى يا ربنا، معتبرا ما يفعله الممثل سوء أدب مع الله، فلا يجب أن نتعامل مع المولى سبحانه وتعالى بهذه الطريقة.

لا أعيب على من كتب بالطبع، فهو ينطلق من أرضية إيمانية مخلصة، أدامها الله عليه، لكن ما لم يلتفت إليه المصرى المحتج على مخاطبة الله بهذه الطريقة، لا يعرف أن المصريين لهم طقوسهم الخاصة فى دينهم، ولهم طريقتهم المميزة فى التعامل مع الله، من الصعب أن تؤاخذهم عليها، لأنهم وهم يتحركون فى رحابه يطمعون فى رحمته، يقنعون أنفسهم أنه أب لكل البشر، والأب لا يمكن أن يغضب من أولاده، وعليه فهو يتجاوز عما يقولونه فى حقه.

أعرف أنك لا تحتاج منى دليلا على ما أقوله، بداخلك ما يصدقنى، لأنك تتعامل مع الله بطريقتك الخاصة، تراه من زاوية ذاتية جدا، تسمع عنه فى القرآن، وبلسان من يعتقدون أنهم وكلاؤه فى الأرض، تفزع من الحديث عن جهنمه التى يعدها لمن يخرجون عن طريقه، وتبتسم عندما يحدثونك عن جنته التى أعدها للمتقين، لكنك وقبل أن تنام تضع الله الذى تريده أنت بين عينيك، لا أحد يشاركك فيه، ولا أحد يفرضه عليك.

كان أحد أصدقائى فى المدرسة الابتدائية يصرخ: صباح الخير يا ربنا، لم تكن الكلمة تثير غضبنا، بقدر ما كانت تفجر فينا الضحكات، خاصة عندما كان يقول إن ربنا صاحبى، بيكلمنى وباكلمه، وعندما قال يوسف

شاهين نفس الكلمة بعد سنوات فى برنامج تليفزيونى رمضانى، وأثارت استياء الكثيرين، لم أندهش، بل قدرت فى يوسف الذى كان يتحدث بروح طفل، أنه أخذ من الله صديقا مقربا، يشكو له، ويشكو منه.

كنت مهتما ولا أزال بموضع الله فى حياة المصريين، جذبتنى كلمة العقاد وهو من هو فى عمقه وحكمته وتأمله واطلاعه، قال: كلما رأيت جمالا فى الكون قلت لا يستحق هذا الجمال إلا إله، وكلما رأيت نقصا فى الكون قلت لا يستطيع أن يكمل هذا النقص إلا إله"، الله هنا عند العقاد مطلق، فلا جمال إلا من صنعه، ولا كمال إلا من يديه وحده.

مصطفى محمود وفى كتابه "الله والإنسان" وهو الكتاب الذى تمت مصادرته، ولا يزال كتابا ملعونا عند كثيرين، قال عن الله: "إن الله عند جدى يتمثل فى شخص طيب رحيم غفور تواب، يداوى الروماتيزم ويقوى المفاصل، وعند أمى مأذون يجمع رؤوس بناتها على رؤوس عرسان أغنياء فى الحلال، وهو عند الأطفال عروس المولد، وهو عند أينشتين معادلة رياضية وقانون تخضع له الأشياء بالضرورة، وهو عند عاشق مثلى حب، وهو عند مشايخ الصوفية وزير أوقاف يوزع الكساء، وهو عند الملحد موضوع دراسة، وعند المؤمن موضوع عبادة، ودائما شئ حتى عند الذى ينكره.

يمكن أن نفهم من كلام مصطفى محمود أشياء كثيرة، منها أنه يثق تماما فى وجود الإله، فهو موجود حتى عند الذين ينكرونه، ومن زاوية ثانية يمكن أن ترى أن الله ليس واحدا عندى الجميع، فهو احتياج، نعبر عنه بما نحتاجه وليس بحقيقته، وهو ما يفتح بابا للبعض ليقولوا بأن الله ليس موجودا من الأساس، وأعتقد أن هذا ما كان مصطفى محمود يسعى إلى التأكيد عليه فى كتابه الذى لا يزال ملعونا حتى الآن.

نوال السعداوى لم تنكر وجود الله، لكنها حملته بغضب مسئولية آلام وأوجاع كل النساء.

تقول نوال: لا أدرى ماذا حدث لى وأنا أقفز، أحسست برجفة عنيفة تسرى فى جسدى ودوار فى رأسى، ورأيت شيئا أحمر اللون، ما هذا؟ انخلع قلبى من الهلع وانسحبت من اللعب، وصعدت إلى البيت وأغلقت على نفسى باب الحمام لأبحث فى الخفاء سر هذا الحادث الخطير، ولم أفهم شيئا، وظننت أن الأمر مرض مفاجئ ألم بى، وذهبت إلى أمى أسألها فى ذعر، ورأيت أمى تضحك فى سعادة، وتعجبت كيف تقابل أمى هذا المرض الفظيع بتلك الابتسامة العريضة، ورأت أمى دهشتى وحيرتى فأخذتنى من يدى إلى غرفتى، حيث قصت علىَّ قصة النساء الدامية.

لم تأخذ نوال السعداوى ما حدث معها على أنه أمر طبيعى، ولكن رسخ فى ذهنها من ذلك اليوم أن المرأة مظلومة دائما، وصكت عبارة عنيفة فى وقعها على الجميع، لابد أنك ستندهش عندما تقرأها، فهى تقول تعليقا على حادثى الختان والعادة الشهرية: إن الله لابد يكره البنات فوصمهن جميعا بهذا العار، وشعرت أن الله تحيز للصبيان فى كل شئ.

فى دفاترى مواقف وتنظيرات وكلمات كثيرة لمثقفين وفلاسفة تعاملوا مع الله تعامل خاص جدا، لكن اهتمامى الأكبر كان بما يعنيه الله عند المصريين البسطاء، هؤلاء الذين ينسجون علاقتهم به على هواهم، دون التقيد بأديان ولا أوامر ولا نواهٍ.

وكنت أن وضعت يدى على بعض ملامح التدين الشعبى، وكان هذا بعضا مما وجدت.

تربط بين المصريين وربهم علاقة تقوم على أن الله رحمته واسعة، بنص القرآن الكريم " ورحمتى وسعت كل شئ"، ولأنهم يثقون تماما فى كل ما جاء فى القرآن، فهم يعبرون عن رحمة الله بطريقتهم الخاصة، ومؤكد أنك قلت أو سمعت:

- ربنا لو ما رحمناش هيرحم مين؟
- احنا لو ما دخلناش الجنة مين اللى هيدخل؟
- يعنى ربنا هيسيب كل الكفار دول وهيدخلنا احنا النار؟
- الأغنيا لهم الدنيا واحنا لنا الآخرة.
- مش معقول ربنا يجمع علينا عذابين واحد فى الدنيا وواحد فى الآخرة.

يمكن أن تتعامل مع هذه العبارات على أنها لا تعنى إلا أن هناك تفريطا من نوع ما فى سلوك المصريين، يشعرون به ولا يقدرون على الهروب منه، ولا يجد المسلم العادى أمامه للهروب من مسئولية هذا التقصير الذى يمارسه فى الغالب بشكل روتينى إلا أن يوسع بنفسه من دائرة رحمة الله التى لابد أن تسعه.

هذه المساحة التى يمكن أن تلخصها فى ثنائية «التقصير - الطمع فى رحمة الله»، هى التى جعلت المصريين يعلون من أسماء الله الحسنى التى تحمل صفات الرحمة والمغفرة والستر، ويفضلون فى أسماء أولادهم عبد الرحمن وعبد الرحيم وعبد الغفار وعبد التواب، دلالة على طلب الرحمة والعفو والمغفرة، والوقوف على باب التوبة دائما، وعبد الموجود دلالة على أنه سندهم والواقف خلفهم يحميهم مما يراد بهم، وعبد الستار دلالة على أنه يسترهم ولا يفضحهم مهما كانت خطاياهم، ورغم أن هناك من الباحثين من يستبعد اسم الستار من بين أسماء الله الحسنى؛ فهو ليس موجودا فى القائمة الرسمية الشرعية المعترف بها، فإن المصريين لا يعترفون بذلك، لأن الاسم إن لم يكن موجودا بين قائمة الأسماء التى تم الاتفاق عليها، فإنه موجود بصفته وسمته وتجليه عليهم فى حياتهم اليومية، فلماذا يستبعدونه وهو يظللهم بتجليات هذا الاسم، فمؤكد أنك قلت مرة : احنا عايشين بستر ربنا، وإن لم تكن قلتها، فمؤكد أن هناك من يعيشون إلى جوارك قالوها.

ليس معنى هذا أن المصريين لا يقتربون من أسماء الله الحسنى التى تعلى من معانى القوة والتكبر والتجبر والانتقام، إنهم يعتصمون بها ولكنهم يفعلون ذلك من باب استعداء الله على من يظلمونهم ويجورون عليهم، وهؤلاء كثيرون يعجز المصريون عن التعامل معهم أو التغلب عليهم، ولا يمكن أن يقفز فى مخيلتهم أن الله يمكن أن يكون قاهرا لهم أو متكبرا عليهم ويترك هؤلاء الظالمين الكبار، فإنهم بالنسبة له أضعف كثيرا من أن يضعهم ندا لقوته وانتقامه، ثم ما الذى يجعل الله ينتقم منهم وهو قادر على إفنائهم بقدرته التى تبدأ بكاف وتنتهى بنون، ويستندون فى ذلك على الفكرة الإسلامية الراقية التى تقول إن الله سيحاسب الناس يوم القيامة برحمته ولن يحاسبهم بعدله، فلو حاسبهم بعدله سيعطيهم حقهم ويحصل منهم على حقه، وساعتها لن يدخل أحد منهم الجنة.

هذا التفريق الذى يتعامل به المصريون مع أسماء الله الحسنى جعلهم ينظرون إلى الله بحالة يمكن التعامل معها على أنها شكل من أشكال العشم، والعشم معنى ينقذ المصريين فى أوقات الضيق والعسر، فأنت تذهب إلى من ليس لك عنده حق، ومع ذلك تطالبه بأن يعطيك وبزيادة، وإذا سألك عن المبرر الذى يدفعه لأن يعطيك، ترفع فى وجهه كلمة مصرية صرفة وهى: أنا عشمان فيك.

هذه الكلمة تذيب الكثير من الحواجز ولا يتردد المصريون فى استخدامها بما لها من دلالات عديدة مع الله، فاللص المصرى يخطط لجريمته وهو يدعو الله أن يستره ويذهب لتنفيذها، ويطلب من الله أن يعينه عليها، واذا حدث وندم عليها فإنه يفعل ذلك وفى نيته أن يعود مرة ثانية وهو على يقين أن الله سيقبله فى كل مرة دون أن يرده أو يصده أو يغلق الباب فى وجهه.

هذا العشم مع الله توازيه حالة أخرى يمكن أن نطلق عليها حالة الدلال المصرية على الله، فالذنب يجاور الطاعة لا يكادان يفترقان، واذا كانت هناك فكرة أن التوبة لابد أن تكون نصوحا، ومن شروطها أن يقلع

صاحبها عن الذنوب فلا يعود إليها مرة ثانية حتى يقبل الله منه توبته، فإن هناك فكرة أخرى تقوم على أن الله يحب عبده الذى يخطئ ثم يعود إليه، وفى الأدبيات الإسلامية أن فرحة الله بعبده العاصى الذى يعود إليه أكبر وأشد من فرحة الأم بوليدها الذى ضاع منها ثم عاد إليها مرة ثانية.

حالة الدلال هذه لم تدفع المصريين إلى الخطأ فقط، لكنها جعلتهم ينسجون علاقة خاصة مع الله، ولا أستطيع أن أنسى البائع المتجول الذى اخترق صوته سمعى ذات مرة وأنا طفل صغير وهو يرفع رأسه للسماء ويقول: يارب، احنا خارجين متوكلين عليك وحق النبى عندك ما ترجعنى مكسوف.

هذا الرجل فى قرارة نفسه يؤمن بالله، ويؤمن أن له كل صفات الجلال والكمال، وإذا كان هناك من يمكن أن يعتبر هذا الكلام تجاوزا من البائع فى حق الله فإنه نفسه سيرفض أنه تجاوز، فهو يتحدث مع الله الذى خلقه، وليس لأحد أن يتدخل بينهما أو يعترض طريقه إليه.

إن البسطاء المصريين لا يعرفون عن الله كثيرا، لكنهم يدركون أنه معهم ولهم، ولا يغضب منهم لأنه لا يريد منهم شيئا، تجاوزت هذه الحالة إلى إنزال المصريين الذات الإلهية إلى منزل التنكيت والنيل منها، وكتاب النكتة الدينية حافل بنماذج وأمثلة كثيرة يصعب النطق بها فضلا عن كتابتها بما يعنى التسجيل والتوثيق لها، ورغم بشاعة هذا التعامل مع الله إلا أنك عندما تبحث عن دوافعه ومبرراته عند المصريين فلن تجد لذلك سببا يتعلق بالتعمد أو الرغبة فى الإساءة، فقط يفعلون ذلك لأن الله بالنسبة لهم ليس إلها منتقما جبارا يبطش بمن يعارضه، ولكنه صديق ودود وحنون، ولا يتخلى عن أصدقائه حتى لو تخلوا هم عنه، ولذلك فهم يتحدثون إليه ليس حديث العبد الخاضع لسيده، بل حديث الصديق لصديقه، فيه بعض من العتاب واللوم أحيانا، وعلى قدر الحب يأتى العتاب، ولذلك يمكن أن تسمع مثل هذه العبارات، أو يمكن أن تكون قلتها أنت أكثر من مرة:

obeikandl.com

- يارب أنا عملت إيه عشان كل ده.
- يارب يرضيك اللى بيحصل ده.
- ماكنش العشم يارب.

الكلمة الأخيرة تلخص أكثر حالة التوحد التى لا تنتهى بين المصريين وبين الله، فهم يدخلونه إلى حياتهم على أنه منهم، عندما يجرى عليهم - رغم أنه صاحب الأقدار كلها - ما لا يعجبهم، يتوجهون إليه باللوم، وكأنه ما يجب أن يفعل ما فعله، رغم أن الأدبيات الدينية تضع بين يدى الله أنه " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون"، لكن المصرى البسيط الذى يخرج من بيته وهو لا يبتغى إلا وجه الله، يرى أنه من حقه أن يعاتبه ويلومه ويغضب منه أيضا.

لكل هذا ولغيره كثير جدا لا يمكننا الإفصاح عنه هنا، لم يكن غريبا أو مفزعا أو مدهشا بالنسبة لى ما ردده مصطفى شعبان فى مسلسله " مولانا العاشق": يا حبيبى يا ربنا، فهى تعبير بسيط جدا عن رغبة المصريين فى أن يكون الله حبيبهم وحدهم، لا يعمل إلا من أجلهم، ولا ينصر غيرهم.

قد يكون أحمد عبد الفتاح مؤلف " مولانا العاشق" قد التقط الكلمة من على لسان أحد المارة فى الشارع، فمثل هذه الكلمات ينطقها المصريون بعفوية شديدة، يسوقونها بين يدى ربهم طلبا للعون والمدد، فهم ورغم ما يظهرونه من شقاوة، إلا أنهم واثقون أنهم بدون الله لا شئ على الإطلاق، وقد يكون مصطفى شعبان قصد منها أن تكون مجرد كلمة مميزة له بين شخصيات المسلسلات الكثيرة، لا أكثر ولا أقل.

لكن يبدو أن هناك ما هو أكثر، ففى مسلسله " مزاج الخير" الذى قدمه مصطفى شعبان قبل عامين، كان يستخدم كلمة لها دلالة أكثر عمق، من كلمته " حبيبى يا ربنا" وهى " هاتها جمايل يارب، وأقول إنها أكثر وأعمق دلالة على العلاقة الخاصة بين المصريين وربهم، لأنها

ببساطة شديدة تشير إلى أن المصريين يعرفون فى قرارة أنفسهم أنهم لا يستحقون على الإطلاق أن يمن الله عليهم بشئ، لا يستحقون أن يقف بجوارهم، أن ينعم عليهم أو يحميهم أو يسترهم، ولذلك فهم يطلبون من الله أن يأتيهم بما يريد جمايل، لأنه لو عاملهم بما يستحقون، فلن يحصلوا على أى شئ على الإطلاق.

العلاقة بين المصريين وربهم بسيطة بقدر ما هى معقدة، يمكن أن نكون قد فهمنا بعضا من ملامحها، لكنى أعتقد أننا لن نستطيع أن نفهمها على حقيقتها أبدا، لأن كل منا عنده الله الذى يؤمن به ويناجيه فى صلواته وخلواته، وكل منا يرضى عن ربه، قبل أن يطلب من ربه أن يكون راضيا عنه، هذه ببساطة المعادلة التى لا يستطيع من يتحدثون بالوكالة عن الله أن يستوعبونها، فمن المهم جدا أن ترضى أنت عن الله قبل أن يرضى الله عنك، أما كيف يتحقق هذه؟ فهذه قصة طويلة جدا.

(٢)
الإسلام تقفيل مصرى

فشل أصحاب ما يسمى بالمشروع الإسلامى فى فهم طبيعة علاقة المصريين بالدين- أى دين وليس الإسلام فقط - وكان طبيعيا أن ينفض المصريون أيديهم من أصحاب المشروع، يحلو للمصريين أن يعلنوا دائما أنهم «شعب متدين بطبعه»، وهى أكذوبة متكاملة الأركان، لكن يمكن قبول ما يمكن أن نتواضع فى تعريفه بأنه مجرد تصور بأن المصريين شعب محافظ، فهذه أوقع.

فالمسافة بين التدين والمحافظة كبيرة جدًا، التدين يقضى بأن يكون سرك مثل جهرك، سلوكك مطابقا لما تعلن أنه معتقدك، لا تعامل الناس بقدر ما تعامل الله وتبتغى رضاه، لكن كونك مواطنا محافظا فمعناه أنك تفعل كل ما يمكن أن يغضب الله ويخالف شرعه الذى حدده بين ثنائية افعل ولا تفعل بشكل واضح لا يحتمل المناورة، بشرط ألا يطلع عليه أو يعرفه أحد، فما أجملك وأنت تعتاد المساجد، وتتردد على الأراضى المقدسة كل عام، وتعلن عن تبرعاتك وزكاتك وأعمالك التى تبتغى بها وجه الله، وفى الوقت نفسه تكون لك حياتك السرية التى تعرف أنك بطاعات قليلة وغير مجهدة وغير مكلفة يمكن أن تمحو آثار آثامك كلها مرة واحدة.

لكن لماذا فشل المصريون فى اختبار التدين؟

أعتقد- غير جازم بالطبع - أن السبب يرجع بشكل أساسى إلى أننا لم نتلق الدين من أحد، لا فى السماء ولا فى الأرض، بل صنعناه صنعا على أعيننا وأيدينا، طبقا للأدبيات الإسلامية، فإن مصادر الإسلام معروفة

ومحددة بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهى مصادر لا ننكرها أبدا، لكنها قبل أن تصبح واقعا فى حياتنا خضعت جميعا للصنعة المصرية التى تعطى للأشياء روحها الخاصة وتطبعها بطباعها الفريد.

جدك المصرى الأول شعر بعبثية الحياة التى تمضى دون أن يكون هناك حاكم يفصل بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين الصالحين والطالحين، فذهب يبحث عن إله، لم يكتف بواحد فقط، فتنوعت الآلهة فى منظومة من التخصص وعدم التداخل، وفى لحظة إنسانية نادرة - لا علاقة لها بالسماء أيضا - أيقن جدك المصرى أن تعدد الآلهة نوع آخر من العبث، فقرر أن يوحدها فى إله واحد.

ولذلك لم يكن تقاطع تاريخ الأنبياء المروى مع مصر أمرا غريبا أو مستهجنا، بل كان طبيعيا ومنطقيا، فإبراهيم عليه السلام يزورها، وموسى عليه السلام يستوطنها، وعيسى عليه السلام يأتيها مستغيثا ومستجيرا، حتى النبى محمد صلى الله عليه وسلم، لم تكتمل له دعوته إلا بالزواج من مصرية، وببشارة لأصحابه بأن الله سيفتح عليهم مصر، وهى البشارة التى صاحبها اعتراف بأن جندها هم خير أجناد الله، وهى البشارة التى تعالى عليها الإخوان المسلمون، وأشاروا إلى أن الحديث الذى أخبر عن هذه الحقيقة ضعيف ولم يقل به أحد، لمجرد اعتقادهم أن جند مصر انقلبوا على الجماعة.

"على الهامش: الإخوان مستعدون أن يكذبوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى كل ما قاله إذا كان هذا يضمن لهم أن يعودوا إلى السلطة مرة أخرى".

التاريخ المصرى يشير إلى أن دعوات الأنبياء لم تكن صاحبة الكعب العالى على المصريين فى أى عصر من العصور، وقد تقول إن الديانات التى سبقت الإسلام لم تكن إلا ديانات مؤقتة، تفاعلت مع شعوب الأرض تمهيدا للديانة الخاتمة التى ستأتى لتقطع الطريق على كل من يدعى

اتصالا بالسماء بعدها، ولذلك كان طبيعيا ألا تعلو أى ديانة سابقة للإسلام على دين الله الخاتم.

لكن هذا من بين الأوهام الكثيرة التى نعيشها، فالإسلام دين أغلبية المصريين نعم، لكن قولا وفعلا وممارسة فإن الإسلام الذى يعيش فى مصر مختلف تماما عن هذا الدين الذى نزل على الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإذا أردتم تعبيرا دقيقا يمكن أن نلخص به الأمر على إجماله، فهو أن الإسلام الذى نتفاعل معه ويتفاعل معنا ليس أكثر من "إسلام تقفيل مصر".

لقد نزل القرآن متفرقا بين مكة والمدينة، لكنه لم يقرأ ملحنا ومنغما إلا هنا فى مصر، قراءة محببة للروح والنفس، فمدرسة التلاوة المصرية فريدة ومتفردة، والآذان الذى وضع النبى كلماته ليس له وقع ولا تأثير إلا هنا فى مصر.

أما عن النبى محمد، صلى الله عليه وسلم، فحدث ولا حرج، ففى موطن مولده لا يقام له احتفال بيوم ميلاده، لكننا هنا نتفنن فى الاحتفاء بهذه المناسبة، ونجعل منها عيدا دينيا شعبيا لا يشاركنا فيه أحد، والأكثر من ذلك أننا تقريبا الشعب الوحيد الذى يغنى للنبى محمد أغانى تصل معه وبه إلى درجة التدليل، نعم، فبلا تردد ومواربة، نحن شعب ندلل النبى.

لم يخرج القرآن من يد المصريين دون أن يضعوا بصمتهم عليه، وأعتقد جازما أن استخدام المصريين للقرآن لا يمكن أن تجده فى أى مكان فى العالم، فهم يقدسونه ويصلون ويتعبدون به، ما فى ذلك شك، لكنهم أخذوا بعض آياته ووظفوها لمصالحهم وأغراضهم الشخصية، وراجع الأمر قليلا، فالحلاق يعلق آية «وجوه يؤمئذ ناعمة» فى محله، وصاحب محل عصير القصب يغازل زبائنه بآية "وسقاهم ربهم شرابا طهورا"، حتى النصابون واللصوص لا يترددون عن تعليق آية "هذا من فضل ربى" أعلى رؤوسهم فى مكاتبهم.

حتى أولياء الله الصالحين الذين يقف المصريون على أبوابهم، ويعيب المتشددون علينا أننا نصل فى اعتقادنا بهم إلى درجة التقديس التى تصل إلى مساحة الشرك، صاغ المصريون علاقة خاصة بهم، فالمواطن المصرى البسيط وبخبث شديد يستغل الأولياء لمصلحته، ولا يمنحهم شيئا إلا بعد أن يحصل على كل ما يريد.

ليس عليك لتتأكد من ذلك إلا أن تتأمل فلسفة النذر لدى المصريين، فأنت تذهب إلى الولى تطلب منه شيئا، وتنذر بين يديه شيئا إن هو حقق لك ما تريد، فإن لم تنل مرادك لم تقدم نذرك، ولو كانت هناك ثقة مطلقة بين المصرى وأولياء الله الصالحين، لذهب بالنذر أولا دون أن يضع الاستجابة لما يريده شرطا للوفاء بنذره.

لا يزال هناك ما هو أكثر، فالمسلم الذى يذهب لأولياء الله من المسلمين إذا لم يجد لديهم ما يبتغيه، يولى وجهه للقديسين المسيحيين، ولا يجد المسلم حرجا أبدا وهو يقف فى طاحونة الأنبا كيرلس وهو يلقى برسالة إليه يضمنها رجاءاته، أو يشعل بيديه شمعة حبا وكرامة لستنا مريم العذراء، ولا تتعجب إذا رأيت مسيحيا يتقرب إلى أولياء الله المسلمين طلبا للوصل وقضاء الحاجات، فدين الولى لا يهم بقدر ما تشغلنا كراماته ومعجزاته وقدرته على قضاء الحاجات.

هذه مجرد ملاحظات على دين المصريين، الذى لا تستطيع أن تفصل مكوناته، لتعرف ما هو الأصل الذى جاء من السماء، وما هى الإضافات التى تصل إلى درجة الإبداعات التى أضافها المصريون إليه، بما يجعلنا نقول باطمئنان شديد إن الإسلام ليس إلا جزءا من أجزاء حياة المصريين الكثيرة والمعقدة والمتناقضة.

مؤكد أنك ستسارع لتقطع علىَّ الطريق، وتقول إن الهوية الإسلامية هى الأشمل والأكثر عالمية، ويمكن أن تضع أمامى حالة النفاق السياسى

التى خدعونا بها كثيرا، وهى أن هناك دوائر ثلاث يتحرك فيها المواطن المصرى، الدائرة الضيقة هى مصر، والدائرة الأوسع منها هى العربية، والدائرة الثالثة الأشمل هى الإسلامية.

لقد أراد أصحاب ما يسمى بالمشروع الإسلامى أن يوهمونا بأن الهوية المصرية هى الجزء والهوية الإسلامية هى الكل، وهؤلاء لا يلتفتون حتى للدائرة المصرية أو الدائرة العربية، فلا دائرة عندهم إلا الإسلامية التى تذوب فيها، وبها كل الدوائر، دون أن يدركوا الحقيقة التى تتفاعل على الأرض، وهى أن الهوية المصرية هى الأشمل والأعم والأبقى أيضا.

لن نشير إلى عمر الإسلام «ألف وأربعمائة عام فقط» وعمر مصر «ما يزيد على سبعة آلاف عام»، ولن نشير إلى الطبقات البشرية التى تعاقبت على مصر وتلك التى تعاقبت على الإسلام، لقد امتصت مصر شعوب الأرض جميعا منذ الهكسوس والفرس والروم والعرب والإنجليز والفرنسيين، بينما استعصت شعوب كثيرة على الإسلام، فإيران مثلا لم تتخل عن لغتها ولا عن اعتزازها بحضارتها، بل يعتبرها البعض خطرا على المشروع الإسلامى.

"يمكن أن نضرب أمثلة كثيرة لدول دخلها الإسلام دون أن يستطيع تغيير هويتها أو لغتها أو ثقافتها".

لقد فشل أصحاب ما يسمى بالمشروع الإسلامى فى فهم طبيعة علاقة المصريين بالدين - أى دين وليس الإسلام فقط - وكان طبيعيا أن ينفض المصريون أيديهم من أصحاب المشروع، بعد أن ظهر على المسرح بصورة واضحة بعيدا عن التجمل والخداع والادعاء الذى كانت تمارسه التيارات المتأسلمة وهى تحت الحصار، مدعية مرة أن الإسلام هو الحل، ومرة أخرى أن الشريعة الإسلامية فيها حلول لكل المشاكل التى تعانى منها مصر، وهو ما بدا بعد ذلك أنه كان أكبر عملية نصب استطاع المصريون أن ينهوها قبل أن تبتلعهم.

الدين بالنسبة للمصريين- والإسلام من بين ذلك بالطبع- ليس أكثر من أداة، يريحون به ضمائرهم، يضمنون أن حياتهم لن تذهب عبثا، يحدثون به حالة من التوازن النفسى، فليس معقولا أن يذهب الظالم بلا عقاب، وأن يمضى المظلوم بلا نصرة، ولأن الدنيا ليست منصفة بما يكفى فقد ارتضى المصريون أن يكون الحكم فى الآخرة.

يرحب المصريون بالدين - ومن ذلك الإسلام بالطبع - فى حياتهم، لكنهم عندما يجدونه يقف أمام حركة حياتهم كما يريدونها، فإنهم يتخففون منه، دون أن يعدموا الوسيلة التى يريحون بها أنفسهم ويضمنون بها رضا ربهم، فربك فى النهاية عند المصريين رب قلوب.

لقد قامت قيامة أحد الدعاة الكبار، عندما قال أحدهم- فى تسجيل تم تداوله الآن على شبكات التواصل الاجتماعى وكأنه فضيحة- إن مصر دولة علمانية ولن تكون أبدا إسلامية، انتفض مدافعا عن إسلامية مصر، مؤكدا أن روحه فداء للإسلام، دون أن يدرك أن هذه الخناقة لا ناقة ولا جمل للمصريين فيها، فمصر لا علمانية ولا إسلامية، ولكنها مصرية لها مذاقها الخاص فى دينها وتاريخها وفنها وأدبها وموسيقاها وعاداتها وتقاليدها وثقافتها وطبيعتها النفسية.

هذه هى الحقيقة الواضحة أمامى، وأعتقد أنها سادت وستسود لأنها الحقيقة الوحيدة التى نعيشها دون الحاجة إلى التأكيد عليها، فهناك هوية مصرية تظلل الجميع، وتغلب الجميع، وتحاصر الجميع، ولا تستسلم لأحد.

لست فى موضع تفصيل الهوية المصرية، ولكن تكفى الإشارة إلى أنها هوية هضمت كل الأديان والأجناس، وصنعت من ذلك جميعا سبيكة متماسكة ترفض أن يتم تغييرها، سبيكة وضعت الفرعونى إلى جوار الرومانى، وجاورت القبطى بالإسلامى، وقبل أن تنهى عملية التكوين أسست ملامحها على عربيتها وإفريقيتها وانتمائها إلى البحر المتوسط، ورغم التناقض الحاد

بين كل هذه المكونات فإن أحدا لا يستطيع أن يفصلها عن شخصية المصرى، أو حتى يتوقع بأى مكون منها يكون رد فعله فى موقف بعينه.

لقد حاولوا تنميط الشخصية المصرية بأنها مرة ساخرة ومرة فهلوية ومرة خانعة، ولم يدركوا أن كل هذه وغيرها وجوه يرتديها المصرى، كل وجه لحاجته ولا أكثر من ذلك، دون تنظير أو محاولة لحصر المصرى فى خانة واحدة، أو التعامل معه على طريقة المعادلات الرياضية أو التجارب الكيميائية معروفة النتائج مسبقا.

خطيئة الإخوان الكبرى أنهم تجاهلوا كل ذلك، حاولوا أن يلعبوا فى سر التركيبة، وقد قادهم غباءهم إلى أن يكون الحافز لهذا التدخل هو الإسلام، اعتقادا منهم أن المصرى مغلوب على أمره أمام الإسلام، لا يستطيع أن يجادل أو يناقش أمرا يخصه، ولما أدرك المصريون أن هذه جماعة تعمل على تغييره وإعادة هيكلته، أعلن الغضب وأصر عليه، للدرجة التى وصل معها المواطن العادى إلى قناعة بأنه لم يعد للجماعة مكان فى مصر لا سياسيا ولا دينيا أيضا.

الإخوان، فى خلاصة للموقف، لم يكونوا إلا وقودا للهوية المصرية، كانوا مجرد حطب من بين الحطب الكثير الذى قدمه التاريخ من أجل أن تظل الهوية المصرية مشتعلة، اللافت أنهم وهم فى طريقهم إلى الاحتراق، أكدوا أن المشروع الإسلامى ليس أكبر من المشروع المصرى بكل ألوانه وتناقضاته وانتصاراته وهناته، ورغم أن السعيد هو من اتعظ بغيره، فإننى أرى السلفيين يسيرون فى نفس الطريق، معتقدين أنهم يمكن أن يغلبوا الهوية المصرية بهويتهم السلفية، بعد أن أخفقت الهوية الإخوانية دون أن يدركوا أن الهوية الإسلامية نفسها غير قادرة على محو الهوية المصرية.

هذه رؤية تمثل يقينى ومعتقدى، لا أطالب أحدا باعتناقها أو الدعوة إليها، لأنها فى الأساس ليست اختيارًا بل قدرا، وهذا يكفى.

(٣)
"الجبتانا"، كيف اخترع المصريون الدين ؟

قبل سنوات - تحديدا فى ٢٠٠٩ - صدر كتاب " الجبتانا، أسفار التكوين المصرية"، وأعترف لكم أننى ترددت فى عرض الكتاب وقتها.

يمكن أن أتحجج بأننى لم أعرض الكتاب وقتها لانشغالى بأعمال أخرى، لكن الحقيقة أن المجتمع وقتها لم يكن ليتقبل بسهولة الأفكار التى حملها "الجبتانا"، كانت أعصاب الجميع مشدودة، كان الإخوان والسلفيون وقتها يدعون حرصهم على الدين الإسلامى، وعلى كل ما يتعلق به، كانوا يوهمون البسطاء أنهم جند الله على الأرض، ولذلك فكل أمر حتى لو كان هينا وبسيطا، لم يكن يتركه الإسلاميون دون أن يشعلوا الأرض نارا، يخرجون فى مظاهرات حادة ولا يتوقفون عن الهتافات المناصرة للإسلام والقرآن.

كان هذا هو حال المتأسلمين وهم فى المعارضة، بعد أن وصلوا إلى الحكم أصبحوا أكثر مرونة، تسامحوا فى كثير من الأمور التى كانوا يشعلون الحرب من أجلها قبل ذلك، دع عنك ما قيل إن حكومة مرسى منحت ملاهى شارع الهرم ثلاث سنوات فى ترخيصها بدلا من عامين فقط، فهذا أمر هامشى، لكن الجماعة التى أشعلت النار من أجل رسوم هولندية مسيئة للرسول، لم تقدم شيئا له قيمة بعد فيلم أمريكى مسيئ للرسول، رغم أن الفيلم كان أشد قسوة وانحطاطا فى الإساءة، لكنه مر لأن الجماعة انحازت إلى مصالحها مع الأمريكان، تاركة ما كانت تقوله وتدعيه وراء ظهرها.

obeikandi.com

فضلت عدم الدخول فى معركة صغيرة مع الإسلاميين، خاصة أن غبار معركة إعادة النظر فى الأحاديث الضعيفة والموضوعة لم يكن قد تبدد بعد، ثم أنى كنت على يقين أن هؤلاء قوم لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون، وإذا فهموا لا يعترفون أنهم على خطأ، أو على الأقل لا يعترفون بأن من يعارضهم على صواب.

قد تقول إن إخراج الكتاب الآن ليس له قيمة خاصة أن الخصم الذى كان يمكن أن يقف فى مواجهة أفكاره فى أضعف حالاته، منشغل بإعادة المكاسب التى تمتع بها لعام واحد فقط، لكن حقيقة الأمر أن عرض مثل هذه الأفكار الآن يأتى للتأكيد على أن المصريين تحديدا لا ينبغى أن يلعب أحد معهم بورقة الدين، لسبب بسيط للغاية هو أنهم من اخترعوه عندما لم يجدوه على الأرض.

الكتاب جمعه الراهب مانيتون السمنودى ورواه الراهب أبيب النقادى – وهذه قصة طويلة يمكن أن تعود إليها فى الكتاب الأصلى – وهو عبارة عن متن مقدس أى سورتا (وسورتا بالمناسبة كلمة مصرية قديمة انتقلت إلى الأديان الأخرى بنفس الاستخدام المصرى، وهى تعنى النص المقدس، فهى فى التوارة والإنجيل سفر، وفى القرآن الكريم سورة.

يروى الجبتانا قصة انبثاق الآلهة، وظهورها فى مصر، وبداية تجمع السلالة المصرية حول وادى النيل، وبدء ظهور الحضارة المصرية، ووصل هذا النص المقدس إلى قصة الحضارة المصرية حتى زمن مصرع أوزيريس الناسوتى وتحوله إلى صورة لاهوتية، ثم زوال الاتحاد الأول وبداية الاتحاد الثانى على يد مينا نارمر.

حفظ مانيتون نص الجبتانا عن الكهنة الذين حفظوه عن أسلافهم، وإمعانا فى قداسة الجبتانا فإن مانيتون رأى فى المنام أن رب الأرباب أمره بأن يعيد تسجيل الجبتانا عن المتون القديمة التى كانت تحويها،

ويستجيب مانيتون على الفور، ويبدأ فى كتابة الجبتانا التى اعتبرها من وحى الآلهة أحيانا، وأحيانا آخرى يعتبرها متونا قديمة سجلها قدامى المصريين على الألواح وعلى جدران المقابر القديمة.

ظلت الجبتانا نصا مقدسا، محفوظا من قبل الكهنة يرددونه فى المعابد وتتلى أجزاء منه فى القداسات، ولما استقرت المسيحية فى مصر بعد عصر الشهداء، حدث لون من الاضطهاد لمن ظلوا على العقائد القديمة، فلاذ المضطهدون بدروب الصحراء وكهوف الجبال وعكفوا على ترديد الجبتانا كنص مقدس يربطهم بما يؤمنون به.

وعندما دخل الإسلام واللغة العربية مصر، وشعر المصريون بالخوف على اللغة المصرية وما يرتبط بها من تراث، عادت الجبتانا إلى الظهور، يرددها المصريون باعتبارها نصا مقدسا محسوبا على القبطية، وهكذا ظلت تردد فى المواسم والاحتفالات القبطية، ويستخدمها بعض الرهبان المعلمين كنص يدربون عليه الطلاب فى الكتابة والقراءة حتى نهاية الزمن الفاطمى فى مصر.

فى الجبتانا أبدع المصرى القديم فى تفصيل أمور دينية عديدة كانت مصدرا للأديان جميعها بعد ذلك، ففى الكتاب المقدس قصة انبثاق الآلهة والعالم، واليوم الآخر، والثواب والعقاب والجنة والنار (البارادويس: معناها الحرفى بيت النعمة، جى هنوم: معناها وادى العذاب وهذا يساوى الفردوس والجحيم)، ثم ساتان وأصلها ست فى القصة الأوزيرية، ثم نونت فصارت ساتان، عوزير هو أوزير وهو عوزير إبل أى عزرائيل فى الفكر العبرانى، وآمين هى نفسها آمون المصرية التى أميلت إلى آمين، ونطق بها كل البشر، وأما نبو المصرية فهى المبارك والمقدس أو النبى جابار، رسول التاسوع (ربما كان اسما وصفيا لتحوت) هو نفسه جبرائيل ملاك الرب.

من الجبتانا ندرك أن مصر هى التى أدخلت الحياة الأبدية والبعث والخلود إلى الوجدان البشرى، وقد انتقل من المصريين إلى الفكر العبرانى السامى، فأقدم أسفار العهد القديم يعبر عن الأمل فى استمرار حياة القبيلة استمرارا عضويا بدائيا، كما فى مملكة النمل أو النحل أو غيرها دون ما اهتمام بعالم آخر.

" وأما أنت يا إبراهيم فتمضى إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة (آية ١٥ إصحاح ١٥ تكوين)، لأكون إلها لك يا إبراهيم ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك (٧ – ٩ إصحاح ١٧ تكوين)، أكرم أباك وأمك لتطول أيامك على الأرض (١٣ إصحاح ٣٠ خروج)، فإن سلكت فى طريقى يا سليمان وحفظت فرائضى ووصاياى كما سلك داود أبوك فإنى أطيل أيامك (١٤ إصحاح ٣ ملوك أول)، ليس للإنسان مزية على البهيمة، لأن كليهما يأكل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد، كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود (٢٠ إصحاح ٣ جامعة)، أسلمت جميعا إلى الموت إلى الأرض السفلى مع الهابطين فى الجب (١٤ – ١٧ إصحاح ٣١ حزقيال)، وواضح فى كل ذلك أنه لا توجد إشارة لعالم آخر أو لحساب أو لجنة ونار.

لكن دوام اختلاط العبرانيين بالفكر المصرى فتح لهم باب البعث والخلود، ولعل أول إشارة واضحة للبعث والآخرة نجدها فى سفر دانيال، وهو متأخر زمنيا، فقد ورد فى الإصحاح الثانى عشر" ، كثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدى" ، (الملاحظ أن النص استخدم (كثيرون) ولم يستخدم كل، وكأن الأبدية ليست للجميع).

كان العبرانيون أقرب إلى الحياة الوحشية الغريزية فعبروا عن استمرار النوع بطريقة مباشرة، أما المصريون الذين ارتقوا فى معراج الحضارة فقد صاغوا الأمور صياغة أخلاقية مثالية، من خلال الإيمان بالبعث وتعلم العبرانيون بعد ذلك من المصريين قيمة الإيمان بالبعث والخلود.

لقد ظلت الجبتانا محفوظة عبر أجيال عديدة بشكل شفوى، حتى سجلها على الألفى الذى كان يعمل موجها عاما فى التعليم فى كراسات عن الراهب أبيب النقادى، لتصل بين أيدينا أسفار كتاب الدين المصرى المقدس، وهى الأسفار التى تعادل الإصحاحات فى الكتاب المقدس، والسور فى القرآن الكريم، ولأن كتاب الدين المصرى كان أولا، فليس أمامنا إلا أن نقر بأن كل ما جاء بعده استلهمه وأخذ منه ونسج عقيدته عليه.

السورة الأولى:

أنا مانيتون السمنودى، لا أعرف عن طفولتى إلا ما سمعته من معلمى وأبى بالروح كاهن معبد مدينة منديس، قص ذلك الكاهن الأب على قصة طفولتى فقال: سلمك لى وأنت فى الخامسة من عمرك فلاح من منطقة البحيرات الشمالية فى أرض النحلة، وكانت تبدو عليك ملامح الذكاء والنجابة، ولما سألنا ذلك الفلاح عنك، روى لنا أن الإله حورس زاره وسلمك له، وأوصاه أن يرعاك حتى الخامسة، ثم يسلمك لنا فى المعبد، أصبحت يا مانيتون ابنا لى بالروح، وعلمتك القراءة والكتابة بعدة لغات، كما علمتك وأنت تعرف الكهانة والطب والسحر.

عرفت أنك ابن من أبناء الآلهة، كنت أحيانا أصحو من نومى على أصوات وترنيمات تأتينى من حجرتك، واكتشفت أن حورس وإيزيس وأوزوريس ورع وآمون وبقية التاسوع المقدس، كانوا يزورونك، ويضعون فى قلبك الأسرار المقدسة، والأسماء السحرية التى تجعلك قادرا على تجاوز عالمنا إلى عالم الآلهة، ولما بدأ لسانك ينطق بالأسرار، خفت عليك فأرسلناك إلى معبد الأسوار السبعة معبد سمنود التى هى سبيتيتوس فى لغة الإغريق.

عشت أنا مانيتون فى معبد سمنود ذى الأسوار السبعة، وتعلمت وعلمت وأتقنت لغات كثيرة، وعرفت جميع الآلهة، وقرأت جميع الألواح المرسلة من الآلهة، صرت كاهنا وأنا ابن ثمانى عشرة، وكاهنا أكبر وأنا

ابـن ثمـان وعشـرين، لم أذق سمـكا فـى حياتـى ولا لحـم خنزيـر، كمـا أننـى ولـدت مختونـا بـلا غرلـة، عشـت زمـن الأسـكندر الكبيـر وفـى زمـن خلفائـه مـن المقدونيـين المسـمين بالبطالـة، تعلمـت وعلمـت فـى معبـد الأسـكندرية وجامعتهـا ومكتبتهـا، أتقنـت كل الخطـوط المصريـة، كمـا أتقنـت الإغريقيـة والفينقيـة والعبريـة والآراميـة والسـريايـنة، طوفـت علـى مراكـز الآلهـة فـى العـالم، زرت معابـد الإغريـق ومعابـد العبرانيـين والأدوميـين ومعابـد فينيقيـا وببلـوس وهـاران، اطلعـت علـى كتابـات وألـواح الكثـير مـن الشـعوب، وعلـى كافـة المتـون التـى أرسـلتها الألهـة، وجمعـت أنا وتلاميـذى كل المتـون المصريـة، وكل مـا كتبتـه الآلهـة المصريـة بأصابعهـا علـى الأحجـار المقدسـة والجـدران والتوابيـت، وهأنـذا أعيـش أيامـى الأخـيرة مـا بـين الأسـكندرية وجامعتهـا ومكتبتهـا ومعبدهـا، وبـين سمنـود ومعبدهـا الهـادئ ذى الأسـوار السـبعة.

كتبـت بأمـر مـن الملـوك البطالـة تلخيصـا كامـلا لحـكام مصـر وآلهتهـا وأسـراتها منـذ عحـا المحـارب والملقـب بنعومـر، حتـى وصـل الأسـكندر. إن تلـك القوائـم للآلهـة والملـوك المصريـين العظـام التـى لخصتهـا، قـد انتشـرت مـن الأسـكندرية وهليوبوليـس وطيبـا، فصـارت توجـد نسـخ منهـا فـى هـاران وببولـس وفينيقيـا ومعابـد الأدوميـين والعبرنيـين والفلسـطينيين.

السورة الثانية:

زرت معابـد جميـع الجنـوب، زرت معبـد طيبـا وطينـا والفونـين وميتيـت والكرنـك وهيراكونبـوس وأبيـدوس وبانوليـس وغيرهـا، اشـتركت مـع كهنـة طيبـة فـى وضـع القوائـم الشـهيرة لملـوك الأرضـين الذيـن حكمـوا أرض الآلهـة، بعـد أن كانـت الآلهـة تحكـم بنفسـها أرض مصـر، ثـم تـرك الآلهـة الأرض ورحلـوا إلى السـماء حيـث اسـتقل الآلهـة بحكـم السـماء، واسـتقل أبنـاء الآلهـة بحكـم الأرض.

وسلسلة أبناء الآلهة تبدأ عندنا بإيزيس وأوزوريس وحورس، ثم تبدأ سلسلة أبناء أبناء الآلهة بالملك للإله عحا المحارب، الذى هو نعومر، والملوك المصريون آلهة وأبناء ألهة وأبناء أبناء ألهة، ثلاثمائة وأربعون ملكا سيطروا على ثلاثمائة وواحد وأربعين جيلا من الناس، وبما أن كل ثلاثة أجيال تكون قرنا من الزمان، إذن فالتاريخ المصرى كله (آلهة وأبناء آلهة وأبناء أبناء آلهة) يبلغ أحد عشر ألف عام وثلاثمائة وأربعين عاما، وأول ملك من أبناء أبناء الآلهة وهو عحا المحارب أو نعومر يعود تاريخه إلى سنة أربعة آلاف قبل الأسكندر، وقبل ذلك كان حكم أبناء الآلهة وحكم الآلهة.

هذا المختصر لحكام مصر وضعت منه نسخ فى جامعة الأسكندرية وفى معبدها وفى الأروقة الملحقة بومبى حيث يتم التكريس للإله سيرابيس المصرى الإغريقى الذى يعبد وتقدم له القرابين والطقوس الآن فى كاتاكوم، وهذا المختصر معروف بلسان الإغريق باسم إيجيبيتاكا وقد ضمنته رسالة بأنواع الأخشاب والعطور المقدسة والبخور واللبان والمر التى تقدم للمعابد فى مصر، ورسالة أخرى عن الأحجار والمعادن والأسلحة والمكتشفات.

السورة الثالثة:

اختفى الثالوث المقدس وحملنى جبار على ظهره الذى يشبه ظهر الحصان وطار بى مستخدما أجنحته الذهبية صاعدا إلى السماء، وتوقف جبار عند الجميزتين السماويتين المقدستين، اللتين تقفان شامختين عند مدخل طريق النور المؤدى إلى العرش السماوى، وخلع جبار أجنحته الذهبية وركبها فى كتفى، وأشار إلى أن أواصل الطريق إلى عرش رب الأرباب، وفهمت أنه يستطيع تجاوز الجميزتين المقدستين وإلا احترق.

حول العرش العظيم رأيت تاسوع الأرباب والملائكة متسربلين بثياب بيض يجلسون على عروش صغيرة تكون دائرة حول العرش العظيم،

ويردد تاسوع الأرباب والملائكة رافعين أياديهم إلى رب الأرباب، المجد لرع رب الأرباب، والذى كان أتوم أول الخلق والآلهة والذى صار آتون وآمون، والذى تحول إلى توت، والأب بالروح لأوزوريس وحورس وإيزيس، المجد لرع الذى سمح لنا بأن نكون معه فى الأعالى، والذى باللمة التى هى ذاته خلق نفسه بنفسه وخلق كل الأشياء والموجودات.

وأمام عرش رع وعروش الأرباب والملائكة الذين يكونون التاسوع، رأيت سبع شموس تتلألأ أنوارها تنطق وتسبح بعظمة رع، فى كل زاوية من الزوايا الأربع المحيطة بقدس الأقداس. يقف حيوان ضخم فى حجم جبل مهول، فبدت هذه الحيوانات محيطة بالمكان، حتى أن عينى عجزتا عن الإحاطة التامة بأجرام تلك الحيوانات، لكن بدا لى أن الحيوان الأول كأنه أسد عملاق، فى وجهه عيون كثيرة تبرق وتلمع، والحيوان الثانى فى شكل قريب من فرس النهر، والحيوان الثالث هو أبو الهول بجسمه الحيوانى ووجهه الإنسانى وتلمع فى وجهه أعداد من العيون لا تحصى والحيوان الرابع هو نسر الكروربيم المجنح.

السورة الرابعة:

فجأة صدر صوت عميق عن صاحب العرش الأعظم، وكأن السموات والأرضين تردد ذلك الصوت القدسى، وسمعت وسمع معى كل من فى الأرض والسماء، صوت قدوس الكون يهتف بى: أى مانيتون أيها الكاهن العارف بالأسرار، أيها الكاتب الذى يكتب بكل لسان، شاءت إرادتى أن يكون هناك فى الأرض نهر عظيم، هو حابى أو النيل، وحول ذلك النهر ينمو شعب عظيم، هم الجبتيون أبناء جبتو مصرايم، والجبتون هم الشعوب الذين هم أقرب إلى الدماء الإلهية، ولهذا طرحوا عنهم حياة الغاب والحيوان وصاوروا فوق جنس البشر فى مضمار الحضارة، إن أرض مصر هى أرض الآلهة فقد عشنا نحن التاسوع المقدس على أرض مصر، حين كانت جنة التسوع جنة أرضية.

هامش على الجبتانا:

من بين الأصول الإسلامية فى الجبتانا تأتى التصويرات العامة للبراق الذى حمل الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى السماء مأخوذة عن الشراح للعهدين القديم والجديد، وبخاصة شراح سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى، ويكثر لدى الشراح المسلمين اعتبار هذه التصورات من الإسرائيليات، وسفر رؤيا مانيتون السمنودى، يكاد يكون الأصل الميثولوجى لكل هذه التصويرات، وكذلك يوجد صدى للجميزتين السماويتين والسدرة شجرة النبق، وهى شجرة صحراوية، والجميزة شجرة مصرية عريقة، احتفظت اللغة العربية باسمها المصرى الذى لا يزال عالقا ببعض أسماء القرى مثل الجميزة وجميزة بلجاى.

هذا التصور يعنى أن رحلة الإسراء والمعراج التى وردت تفاصيلها فى كتب السنة لم تكن إلا إعادة تصوير لما جاء فى الجبتانا، ، وهنا أنقل نصا من السورة الثالثة على لسان مانيتون: " ما إن وضعت رأسى على الوسادة فى حجرة نوم كبير الكهنة والتى تركها لى حيث سافر إلى عين شمس، حتى انتبهت من نومى مذعورا، أيقظنى الإله حورس فى هيئة الصقر، مستخدما أجنحته المصوغة من الذهب والياقوت والزمرد، وكانت ترافقه الأم الإلهة إيزيس التى كانت تلبس رداء أرجوانيا أبهى من زنابق الحقول ومن زهور اللوتس، وابتسمت لى الربة الإلهة وربتت على كتفى، كذلك ابتسم لى الإله أوزير وطمأننى بأنه لم يأت ليأخذنى معه إلى الغرب، وقدم لى جبار أحد معوانى رع رب الأرباب الذى يسميه الكنعانيون والأدوميون "لا"، والذى تسميه القبائل العبرانية والسامية "ألوهيم".

(٤)
جنة المسلمين، الحقيقة وركام الأكاذيب

كانت القاعة صامتة تماما، الدكتور والفيلسوف والمفكر الكبير الدكتور حسنى حنفى يتحدث مع طلبة الفرقة الثانية من كلية الإعلام عن الجنة، بطريقته الملفتة أغرق فى تأملاته الخاصة، قال إن الجنة ليست طعاما ولا شرابا ولا نساء، فالجنة التى أعدها الله لعباده المتقين ليست إلا إحساسا بالقرب منه، فأن تكون إلى جوار الله فهذا يكفيك، أما ما جاء فى القرآن الكريم من أوصاف مادية فهى للتقريب فقط، ولا شئ منها حقيقى على الإطلاق.

انتفضت طالبة، كانت قد ارتدت الحجاب مؤخرا، معترضة، وغاضبة، قالت له: لو سمحت لى يا دكتور كلامك ليس صحيحا، لأنه يخالف القرآن الكريم، وليس مطلوبا منى أن أصدقك أنت دون أن تقدم لى أى دليل على ما تقوله، وأكذب القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

سألها حنفى: وهل لديك دليل على ما جاء فى القرآن؟ هل رآه أحد، أم أننا قرأنا ذلك فى القرآن فقط؟ قالت: قرأناه فقط، قال لها: إذن أنا يمكن أن أكون على صواب، لأنى أقدم تفسيرا للقرآن وهم يقدمون تفسيرا، دون أن يدرى أحد منا شئ، ويمكن لك أن تقتنعى بكلامى أو لا تقتنعى ولا داعى للغضب.

لم تنصت الطالبة التى تحجبت حديثا لكلام حسن حنفى، واصلت غضبها، وقالت له، أنا لن أصدقك أبدا، والجنة فيها فاكهة ولبن وعسل وخمر وما لذ وطاب من الطعام. فابتسم حنفى الذى

obeikandi.com

أدرك أن الفتاة لن تصمت، وقال لها: هنيئا لك يا آنسة بالخمر والعسل واللبن والفاكهة، أما أنا فلن أشترك معك فيما تريدين.

لا يخرج الحديث عن الجنة عن هذا الحوار أبدا، هناك من يركن إلى أن الجنة التى جعلها الله مكافأة لمن أطاعه ليس معقولا ولا مناسبا ولا منطقيا بالمرة أن تكون مادية مجردة، لا مكان فيها إلا للأكل والشرب والجنس الذى لا ينقطع، وهناك من يرى أن الجنة ليست إلا تعويضا عن الحرمان الذى يعانيه الإنسان فى الدنيا، وعليه فسيجد فيها كل ما لذ وطاب، وكل ما حرم منه، أو حفظ نفسه من إتيانه من المحرمات، ويدللون على ذلك بالغلمان المخلدين.

وهذه قصة مختصرها أن الإنسان الذى تهفو نفسه إلى مضاجعة الغلمان الصغار فى الدنيا، لكنه يحفظ نفسه، سيجد بغيته فى الآخرة، حيث أعد الله له الغلمان المخلدين، لينهل منهم ما يريده.

أصحاب هذه الرؤية يركنون ظهورهم إلى القرآن الكريم، ففيه جاء ذكر الولدان المخلدين ثلاث مرات.

الأولى فى سورة الواقعة: "والسابقون السابقون، أولئك المخلدون، فى جنات النعيم، ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون".

وفى سورة الطور: "ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون".

وفى سورة الإنسان: "ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتم لؤلؤا منثورا".

أفتح معكم كتاب "خواطر مسلم فى المسألة الجنسية" للكاتب الراحل الذى كان يقدم نفسه على أنه كاتب إسلامى، لأقرأ معكم ما قاله.

ففى الآية الأولى يرى أن الغلمان يعرضون فى مجال التنعم والتلذذ بجمالهم، كجزاء حسن للمؤمنين، مثلهم مثل الأباريق والخمر والفاكهة والطير والحور العين، كلها للمتعة بما فيها من جنس، وإذا كان الولدان وحور العين هم الكائنان العاقلان، وحور العين ثابت فى الأثر ونص القرآن أنهن للاستمتاع الجنسى، وكل الفرق بين الحور العين والولدان أن الحور لؤلؤ مكنون والولدان منثور، والمفسرون قرروا أن اللؤلؤ المنثور أكثر جمالا من المكنون، وإن كان المكنون أكثر صيانة وأكثر إثارة للخاطر، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد آثر هؤلاء الغلمان بالجمالين المكنون والمنثور.

وعن الآية الثانية: "ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون، يقول ابن عباس: "سرر منسوجة بالذهب، مرصعة بالدر، متكئين، أى حال كونهم مضطجعين على تللك الأسرة، شأن المنعمين المترفين، متقابلين أى وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد، وهذا أدخل فى السرور، وأكمل فى آداب الجلوس، ويدور عليهم للخدمة أطفال فى نضار الصبا لا يموتون ولا يهرمون.

أما الموضع الثالث الذى احتله الولدان فى القرآن حيث يطوفون إذا حسبتهم لؤلؤا منثورا، فيقول المفسرون: مضطجعون على الأسرة المزينة بفاخر الثياب والستور، وإنما خصهم الله بهذه الحالة لأنها أتم حالات التنعم، أى غلمان ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين، مخلدون، أى دائمون على ما هم عليه من الطراوة والحسن لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مر الأزمنة، تجدهم منتشرين فى الجنة لخدمة أهلها تخالهم لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم كأنهم اللؤلؤ.

يستعرض جلال كشك آراء المفسرين فيما يخص الغلمان فى الجنة، لكنه يحسم كل هذه التفسيرات والتأويلات بقوله: " ومن حقنا أن نفسر قوله تعالى " غلمان لهم" بأنهم غلمانهم فى الدنيا الذين عفوا وتأثموا أو صانوهم عن الفاحشة، فاجتمعوا فى الجنة فى خلود دائم للحظة الرغبة التى كبحت بالتدين.

obeikandl.com

ويأخذ كشك فى التجويد اللامتناهى، حيث يقول وإذا كان المفسرون قد اتفقوا على دوام صفة الولدنة، أو خلودهم فى سن الغلمان فإن الحكمة فى النص على الخلود، هى تأكيد مصدر المتعة فى هؤلاء الغلمان لمن يشتهيهم ودوامها، بعكس ما فى الدنيا من زوال الفتنة بدخول الغلام سن الرجولة، ففى الجنة - كما يقول كشك - لن تنبت لحية شقران أبدا حتى ينجز وعده لمن أشفق من أهله وخاف من ربه يوما عبوسا قمطريرا، فوقاه ربه شر ذلك اليوم، وجزاه بما صبر جنة وحريرا، وولدانا مخلدين، مع ثياب سندس واستبرق وأساور من فضة، أى هيبيين وبانك، مما اشتهى فى الدنيا وحرم نفسه منه مخافة ربه.

أرى الغضب باديا فى عينيك مما يقوله كاتب كان يقدم نفسه على أنه كاتب إسلامى، فهل معقول أن الجنة سيكون فيها شذوذ جنسى، وهل ما جعله الله حراما على عباده فى الدنيا يحلله لهم فى الآخرة، ثم إذا كان الله فى تصور البعض سيزيل من الناس شرورهم وخصالهم السيئة قبل أن يخلدهم فى الجنة، ألا يستطيع بالمنطق نفسه أن يعالجهم من شذوذهم ومن ميلهم إلى مضاجعة الغلمان.

على أية حال ليست هذه القصة، فالإشارة فقط إلى أن كلام القرآن عن الجنة محدد جدا، لكن ما لحق بها وعنها كان مجرد شطحات من البشر، فهم يعبرون عما يرغبون فيه، ويبالغون فى تصوير ما سيجدونه فى الجنة، لكن الأساس الحقيقى الذى وضعه القرآن للجنة بعيدا عن المبالغات وعن التصوير الذى هدف من خلاله إلى تقريب المعانى إلى البدوى الذى تلقى القرآن من الله فى ملامسته الأولى للأرض، هو أساس فى آية واحدة ومحددة، قال الله خلالها: "لهم فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين".

هذه الآية تحديدا هى التى تمت ترجمتها بعد ذلك فى حديث قدسى، قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله قال: "أعددت لعبادى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، ولا أدرى ما الذى

جعل علماء ومفسرين كثر على طول التاريخ يجتهدون فى تصوير الجنة بمبالغات فجة، تجعل النفور من الجنة أقرب من حالة الأنس بها.

كان يمكن لهؤلاء العلماء أن يقفوا تماما عند حدود الآية، لكنهم جعلوا من الجنة تجارة، سلعة يبيعونها للمغييبن فى الأرض، حتى يسطوا على أموالهم ويسيطروا على عقولهم، تقدم حتى تحصل على البركة، اعلن السمع والطاعة حتى تحصد النعمة، ليس أمامك طريق إلى الجنة إلا من خلالنا، فكن تابعا حتى تحقق ما تريد.

من أجل هذا يعتمد شيوخ السلفية تحديدا على الخرافات التى امتلأت بها كتب التراث عن الجنة، وقلما تجد أحدا من دعاة السلفية لم يقدم لجمهوره خطبة عنوانها "نعيم الجنة"، ومن الصعب أن تجد اختلافا بين ما يقولونه أو يذهبون إليه، فهم يشربون من نفس المنبع.

لن أفتش كثيرا فى كتب التراث، سأتوقف بكم قليلا عند كتاب " التذكرة، فى أحوال الموتى وأهل الآخرة"، وهو كتاب للإمام القرطبى، والقرطبى يستمد شهرته لدى من يعرفه من عموم المسلمين من تفسيره الشامل الذى وضعه لآيات القرآن الكريم، حيث يعتبر - التفسير وليس القرطبى - من أمهات كتب التفسير.

تذكرة القرطبى تتعرض لأحوال الموتى وما يجرى عليهم بعد الموت، وكذلك ما يقع من أحداث فى الجنة والنار، كل ذلك من خلال الأحاديث النبوية ورؤى الصوفيين المنامية، وروايات لبعض الصحابة والتابعين.

المصادر معلنة ومعروفة، ويمكن أن تقول إننا لا يمكن أن نشكك فيما سيأتى بعد ذلك، فحتما ما ستنقله عن القرطبى عن الجنة هنا حقائق لا تقبل الشك، وهنا لابد أن أطلب منك أن تنتظر قليلا لتسمع ما يقوله، وما يسجله على اعتبار أنه صورة للجنة التى سيجدها المسلمون عند ربهم.

استعد لما سيقوله القرطبى والكلام له نصا.

صفحة ٤٥٩ يقول: روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الحور العين من أى شئ خلقن؟، فقال: من ثلاثة أشياء، أسفلهن من المسك واوسطهن من العنبر وأعلاهن من الكافور، وشعورهن وحواجبهن سواد خط من نور".

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: سألت جبريل عليه السلام فقلت: أخبرنى كيف يخلق الله الحور العين؟ فقال لى يا محمد: يخلقهن من قضبان العنبر والزعفران مضروبات عليهن الخيام أول ما يخلق منهن نهدا من مسك أذفر أبيض عليه يلتام البدن".

ويستند القرطبى على كتف ابن عباس رضى الله عنه، الذى ينقل قوله: خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حلة مثل شقائق النعمان إذا ما أقبلت يتلألآ وجهها نورا ساطعا كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا وإذا أقبلت يرى كبدها من رقة ثيابها وجلدها، وفى رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر، ولكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهى تنادى: هذا ثواب الأولياء جزاءا بما كانوا يعملون.

هنا لابد أن أتوقف قليلا عند ما قاله ابن عباس ورواه القرطبى.

أولا: لم يقل لنا القرطبى هل ما قاله ابن عباس نقله نقلا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أما أنه من بناته أفكاره، وإذا كان من بنات أفكاره فكيف وصل إلى هذه الصورة الجهنيمة التى تليق بكائنات ألف ليلة وليلة، هل زار الجنة مثلا وعاد منها ليقص علينا ما رأى، أم أنه أعمل خياله حتى قام بتصنيع هذا المخلوق الفظيع الذى لا يمكن أن يكون موجودا فى الأساس لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، لا فى الجنة ولا فى النار.

ثانيا: إذا كان علماء الأزهر والسلفيين – الذين غضبوا من كلام الدكتورة غادة والى وزيرة التضامن الإجتماعى، عندما أشارت إلى أن الجنة سيكون فيها رقص ومزيكا – يثقون فى كلام ابن عباس ويعتقدون أنه صواب، ويحلمون بهذا الكائن الهلامى الذى صوره، فما الذى يزعجهم إذا تخيلت غادة أن فى الجنة مزيكا ورقص؟!

★★★

نعود بكم مرة أخرى إلى القرطبى وما قاله عن الجنة وما فيها من نساء.

ينقل القرطبى عن مسلم عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء أو رشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، وفى رواية ثانية قال: والتكبير كما يلهمون النفس.

وهذا الترمذى ينقل عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا فى الجماع"، قيل يا رسول الله: أو يطيق ذلك؟ قال: يعطى مائة قوة.

وينقل القرطبى ما ذكره الدرامى فى مسنده عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الرجل من أهل الجنة ليعطى مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة، فقال رجل من اليهود: إن الذى يأكل ويشرب يكون منه الحاجة، قال: ثم يفيض من جلده عرق فإذا بطنه قد ضمر.

لا يزال القرطبى ينقل عمن نقلوا وقالوا، وهذا نص مما عنده:

وذكر المخرمى عبد الله بن أيوب، قال حدثنا أبو أسامة عن هشام عن زيد بن الجوارى، وهو زيد بن العمى عن ابن عباس قال: قلنا يا رسول

الله أنفضى إلى نسائنا فى الجنة، كما نفضى إليهن فى الدنيا؟ قال: إى والذى نفسى بيده، إن الرجل ليفضى فى الغداة الواحدة إلى مائة عذراء.

وهذا أبو محمد الدرامى عن أبى أمامة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوجه الله اثنتين وسبعين زوجة، اثنتين من الحور العين، وسبعين من ميراثه من أهل النار ما منهن واحدة إلا ولها قبل - أى قبل شهى - وله ذكر لا ينثنى، وحتى لا تتعجب وتسأل عن حكاية نساء أهل النار هذه، يلاحقك هشام بن خالد أحد مصادر القرطبى فى ملحمته عن الجنة، فيقول لك: من ميراثه من أهل النار يعنى رجالا دخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم.

وتخيل أنت حالة الهذيان التى كان فيها هؤلاء، محقق الكتاب أثبت فى هامشه أن حديث الميراث هذا ضعيف جدا، لكن فى النهاية القرطبى أثبته فى كتابه، واستعان بمن يفسر له حكاية الميراث من النساء، فسيادتك بعد أن تشرف فى الجنة، ستتزوج اثنين من الحور العين فقط، ومعك سبعين إمرأة ستحصل عليهم من نساء أهل النار، فهؤلاء لا يعتبرون المرأة كائنا مستقلا، فزوجها الكافر سيدخل النار، أما هى فستدخل الجنة لا لشئ إلا لتكون آلة جنس يستمتع بها الرجل المسلم، هل هذا منطق؟ هل هذا عقل؟ على أية حال هذا ما جاء فى كتاب القرطبى، والذى يعتقد فيه كثيرون ممن يتلقون دينهم عن الرجال دون أن يمعنوا فيه التفكير.

نعاود القراءة مرة أخرى.

يقول القرطبى: "يذكر أن الآدميات فى الجنة على سن واحدة، أما الحور العين فأصناف مصنفة صغار وكبار على ما اشتهت أنفس أهل الجنة، ويروى الترمذى عن على رضى الله عنه أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن فى الجنة لمجتمعا للحور يرفعن أصواتهن، لم

تسمع الخلائق بمثله، يقلن نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له.

هنا تدخل السيدة عائشة رضى الله عنها، وينسب إليها القرطبى قولها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابتهن المؤمنات من نساء الدنيا، نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، ولا تنصرف السيدة عائشة دون أن تقول: فغلبهن والله أعلم.

يتعمق القرطبى فى الحديث عن الحور العين، ينقل عن ابن وهب عن محمد بن كعب القرظى أنه قال: والله الذى لا إله إلا هو لو أن امرأة من الحور العين أطلعت أسوارها من العرش لأطفأ نور سوراها نور الشمس والقمر، وقال أبو هريرة، إن فى الجنة حوراء يقال لها العيناء، إذا مشت مشى حولها سبعون ألف وصيف وعن يمنيها وعن يسارها كذلك، وهى تقول: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

ابن عباس يظهر مرة أخرى على صفحات القرطبى، ويبدو أنه أراد أن ينافس أبا هريرة فيما قاله، يقول ابن عباس: إن فى الجنة حوراء يقال لها لعبة، لو تفلت فى البحر لعذب ماؤه كله، مكتوب على نحرها من أحب أن يكون له مثلى فليعمل بطاعة ربى عز وجل.

ويضع القرطبى يده مرة أخرى على كلام منسوب للنبى صلى الله عليه وسلم مباشرة دون وسطاء، يقول: وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه وصف حوراء ليلة الإسراء فقال: ولقد رأيت جنبها كالهلال فى طور البدر، منها ألف وثلاثون ذراعا، وفى رأسها مائة ضفيرة، ما بين الضفيرة والأخرى سبعون ألف ذؤابة، والذؤاب أضواء من البدر مكلل بالدر وصفوف الجوهر، على جبينها سطران مكتوبان بالدر والجوهر، فى السطر الأول بسم الله الرحمن الرحيم، وفى السطر الثانى من أراد

obeikandl.com

مثلى فليعمل بطاعة ربى، فقال لى جبريل: يا محمد هذه وأمثالها لأمتك فأبشر يا محمد وبشر أمتك وأمرهم بالجهاد.

ينزل القرطبى بعد ذلك درجة من النبى ومن عاشوا معه إلى التابعين.

يقول: قال عطاء السلمى لمالك بن دينار: يا أبا يحيى شوقنا، فقال له: يا عطاء إن فى الجنة حوراء يتباهى بها أهل الجنة من حسنها، لولا أن كتب على أهل الجنة ألا يموتوا لماتوا عن آخرهم من حسنها، قال: فلم يزل عطاء على كمد من قول مالك أربعين يوما.

وهذا ابن المبارك ينقل عنه القرطبى قوله: أخبرنا معمر عن ابن اسحاق عن عمرو بن ميمون الودى عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم، ومن تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر من الزجاجة البيضاء.

لا يزال عند القرطبى الكثير.

فمن بين ما ينسبه لمصادره: من الحور العين فى ضمة من درة مجوفة مما نعت الله " حور مقصورات فى الخيام" على كل امرأة منهن سبعون حلة ليس منها حلة على لون الأخرى، وعليهن سبعون لونا من الطيب، ليس منهن لون على ريح الآخر، لكل إمراة منهن سبعون سريرا من ياقوتة حمراء موشمة بالدر والياقوت، وعلى كل سرير منهن سبعون فراشا، على كل فراش أريكة، ولكل امرأة منهن سبعون ألف وصيفة لحاجتها، وسبعون ألف وصيف، مع كل وصيف صفحة من ذهب فيها لون من طعام تجد لآخر بياقوت أحمر، بكل يوم صامه من شهر رمضان، سوى ما عمل من الحسنات.

لا أريد أن أذهب بكم بعيدا عن ذلك، فالكلام عن الحور العين لا ينقطع، ورغم غرابته إلا أن هناك من يثق أنهم سيكونون على هذه الصورة، وأغلب الظن أن هذا اليقين يأتى من حالة الإلحاح الشديدة التى يمارسها

دعاة لا يزالون يعيشون بيننا ويتعاملون مع هذا الكلام الخرافى الذى يخاصم ما جاء فى كتاب الله، على أنه حقيقة، ويريدون من الناس أن تصدقهم، والناس يصدقونهم لأنهم يعانون، ولا يجدون علاجا لأوجاعهم إلا أن يتخيلوا أن كل ما يقال لهم عن الجنة سيكون من نصيبهم.

من باب المحايلات على ما يردده الدعاة عن الجنة تاتى طريقة التعامل مع إشكالية أعتقد أنها ملغزة ومحيرة، فإذا كان للرجل كل هذا، حور عين على كل شكل وعلى كل لون، حفلات جنس لا تنقطع أبدا، فما الذى ستأخذه المرأة، ما الذى يجعلها تصبر هى الأخرى، وما الذى يجعلها تلتزم، هل ستكون مع زوجها فى الآخرة- هذا الزوج الذى من المفروض أنه سيعيش فى غابة من النساء، وقد انعم الله عليه بأنه سيرفع من زوجته الغيرة، فتتركه دون مضايقات يقضى وقته مع الحوريات - وما الذى تفعل المرأة التى تزوجت أكثر من رجل، مع من ستكون فى الجنة، هل سيقفون أمامها لتختار هى، أم أن الله هو الذى سيختار لها؟

إشكالية بحث لها الكثيرون عن حل.

منذ سنوات بعيدة أدلى الشيخ اسماعيل حميدى وهو أحد الدعاة السلفيين الذى لا أعرف له أرضا الآن، وقال فى خطبة شهيرة، إن المرأة فى الجنة ستنعم بزوجها، وسيمنحه الله قوة مائة رجل حتى يمتعها كيفما تشاء، لكن يظل السؤال عما ستجنيه المرأة من زيادة قوة زوجها، إنه يحصل على ميزة إضافية، وكأنها لا يمكن أن تحصل على شئ خاص إلا إذا قاسمها الرجل فيه.

لكن إلى جوار رؤية إسماعيل حميدى الساذجة، وقع فى يدى مقال بعنوان " أحوال النساء فى الجنة" للشيخ سليمان بن صالح الخراشى، وهو أحد شيوخ الوهابية الكبار.

أتى الخراشى إعجازا فى الحقيقة عندما عالج أزمة حق المرأة فى الجنة.

يقول: لما رأيت كثرة أسئلة النساء عن أحوالهن فى الجنة وماذا ينتظرهن فيها أحببت أن أجمع عدة فوائد تجلى هذا الموضوع لهن، ومنها: أن النفس البشرية سواء كانت رجلا أو إمرأة تشتاق عند ذكر الجنة وما حوته من أنواع الملذات، وأن الجنة ونعيمها ليست خاصة بالرجال دون النساء، لكن ينبغى للمرأة ألا تشغل بالها بكثرة الأسئلة والتنقيب عن تفضيلات دخولها للجنة: ماذا سيعمل بها؟ أين ستذهب؟ إلى آخر أسئلتها وكأنها قادمة إلى صحراء مهلكة، فعند ذكر الله للمغريات الموجودة فى الجنة من أنواع المأكولات والمناظر الجميلة والمساكن والملابس فإنه يعمم ذلك للجنسين.

ولأن الخراشى يدرك الأزمة، فإنه يقول: ويتبقى أن الله أغرى الرجال وشوقهم إلى الجنة بذكر ما فيها من الحور العين والنساء الجميلات، ولم يرد مثل هذا للنساء، فقد تتساءل المرأة عن سبب هذا؟

أغلق الخراشى الباب على النساء من البداية فقال: إن الله لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، معنى ذلك أنه لا يمتلك إجابة واضحة، يحل من خلالها هذه الأزمة، لكنه حاول أن يجتهد فقال، حتى يخرس النساء جميعا.

فقال:

أولا: من طبيعة النساء الحياء كما هو معلوم، ولهذا فإن الله عز وجل لا يشوقهن للجنة بما يستحين منه.

ثانيا: شوق المرأة للرجال، ليس كشوق الرجال للمرأة، ولهذا فإن الله شوق الرجال بذكر نساء الجنة مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: "ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء"، أما المرأة فشوقها إلى الزينة من اللباس والحلى يفوق شوقها إلى الرجال لأنه مما جبلت عليه كما قال تعالى: " أو من ينشأ فى الحلية".

ثالثا: يستند الخراشى على ما قاله الشيخ الوهابى الأشهر ابن عثيمين، فهو يرى أن الله إنما ذكر الزوجات للازواج لأن الزوج هو الطالب وهو الراغب فى المرأة فلذلك ذكرت الزوجات للرجال فى الجنة، وسكت عن الأزواج للنساء، لأنه ليس مقتضى ذلك أنه ليس لهن أزواج، بل لهن أزواج من بنى آدم.

رابعا: وحتى ينهى الخراشى الأزمة، فإنه يصنف النساء فى الجنة على النحو التالى، فالمرأة التى ماتت قبل أن تتزوج يزوجها الله عزوجل فى الجنة من رجل من أهل الدنيا لقوله صلى الله عليه وسلم: (ما فى الجنة أعزب)، ومثلها المرأة التى ماتت وهى مطلقة، ومثلها المرأة التى لم يدخل زوجها الجنة، وأما المرأة التى ماتت بعد زواجها فهى فى الجنة لزوجها الذى ماتت عنه، و التى مات عنها زوجها فبقيت بعده لم تتزوج حتى ماتت فهى زوجة له فى الجنة، و التى مات عنها زوجها فتزوجت بعده فإنها تكون لآخر أزواجها مهما كثروا لقوله صلى الله عليه وسلم: (المرأة لآخر أزواجها).

هذه رؤية عصرية ليست غارقة فى القدم للجنة، من زاوية ما الذى ستحصل عليه النساء، لكنها لم تختلف كثيرا عما قيل على مر العصور، فالجنة التى تم تدوينها فى كتب التراث بعيدا عن القرآن الكريم لم تخرج عن هدفين محددين لا ثالث لهما:

الهدف الأول هو أن يستغل رجال الدين ما يرددونه وينسبونه للنبى عما فى الجنة من نعيم لإخضاع عباد الله الفقراء، الذين يحلمون بكل ما حرموا منه فى الدنيا، وبذلك تدوم لهؤلاء السلطة والسيطرة والنفوذ.

والهدف الثانى أن يأخذ الرجل مما يقال عن الجنة وما سيحصل عليه فيها وسيلة للتمايز والاستعلاء على المرأة، فهو ولأنه مفضل عند الله سيأخذ كل شئ، أما هى فلن تحصل على أى شئ، وكم كان مضحكا

عندما قال الخراشي ومن خلفه كثيرون إن المرأة أكثر حياءً؛ ولذلك فهي لن تطلب شيئا لنفسها.

ما حاولوا تدوينه عن الجنة فيه خلل، كما في أشياء كثيرة خلل، وهو خلل لأننا تعاملنا مع الدين نفسه على أنه تجارة، كم سيعطينا الله مقابل أن نعبده، سيعطينا الجنة، حسنا ما الذى سنجده فيها، وهنا دخل السماسرة ليضحكوا عليك بكل ما يغريك وأنت للأسف الشديد صدقت، اكتفى فقط بما قاله القرآن: ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، اطلب من الله ما يمتعك ستجده أمامك، دون أن يخدعك أحدهم باسم الدين، فما عند الله هو وحده الأعلم به.

★★★

(٥)
الإله المرعب، قصة الفزع الإسلامى

لن ينتصر أحد فى معركة عذاب القبر التى تنفجر فى وجوهنا من آن لآخر.

كل طرف (الذين ينكرونه من المثقفين وأصحاب الاتجاهات العلمانية من ناحية، والذين يؤيدونه ووراءهم كثيرون من رجال الأزهر والأوقاف والسلفيين من ناحية ثانية) لديه من النصوص ما يؤكد وجهة نظره وطرحه الذى يتبناه، وهذه فى الأساس أزمة الفكر الإسلامى؛ فكل قضية تمتلك نصوصا حاكمة ومؤكدة توجد نصوص معاكسة لها تماما.

المهزلة أن كل طرف يتمسك بنصوصه، ويعتقد أنها صواب، ولو جئنا إلى مسألة عذاب القبر بالتحديد، سنجد مأساة الفكرة الإسلامى تتجلى فى كبر صورها، فلا من يعارضه اطلع بنفسه وتأكد أنه لا يوجد عذاب قبر، ولا أصحاب العمائم واللحى ومن يناصرونهم تأكدوا ورأوا رأى العين أن هناك عذاب قبر، كلهم أسرى لنصوص قرأوها عن آخرين، لا يملكون هم بدورهم أى دليل مادى على ما يذهبون إليه.

الأمر فى النهاية لا يرتبط بالمعتقد، ولكن يرتبط بتصور كل طرف عن معتقده. الذين يذهبون إلى وجود عذاب القبر يعتقدون أن هذا جزاء عادل، فمن يخطئ لا بد أن يعذب، ولا يكتفى أصحاب هذه النظرة بعذاب الآخرة الذى هو حسب معتقدهم أيضا سيكون إلى أبد الأبدين، فمن يدخل جهنم سيظل خالدا فيها، أما الذين يذهبون إلى عدمية عذاب القبر فيركنون إلى أن الله الرحيم لا يمكن أن يحكم على عباده بكل هذا العذاب، وأن ما يتردد عن الشجاع الأقرع الذى هو عقاب

مباشر لتارك الصلاة فى القبر ليس إلا خزعبلات أفرزتها عقول مريضة.

المعركة بهذا الشكل أبدية، لا خير فيها ولا منها، كل طرف سيظل معتصما ليس بما يراه صحيحا فقط، ولكن بما يستريح إليه، الأمر ليس متعلقا على الإطلاق بمن يملك دليلا - كل منهما يملك الدليل- ولا بمن يستطيع إقناع الآخر، فلا أحد سيقتنع بوجهة نظر خصمه، ولكن يتعلق بالصراع الأبدى بين الأفكار القائمة على تصور كل منا للحياة ولما بعدها، وهو تصور قائم على ما نريده وليس على ما هو قائم بالفعل، وهو بالمناسبة أمر لا يعرفه أحد حق المعرفة.

المسألة تتعلق عندى بما هو أعقد، فالصراع على عذاب القبر يمكن أن يكون إشارة إلى ما هو أكبر، إنه صراع على صورة الله فى قلوب المؤمنين به، وهى صورة يصر المتشددون على جعلها مرعبة مخيفة؛ اعتقادا منهم أن هذه الصورة وحدها كفيلة بأن تجعل المؤمنين به خاضعين ليس لله نفسه ولكن لسلطان رجل الدين، فهم يحكمون أتباعهم بالخوف، فى مقابل من يحاولون تحرير صورة الله من هذا الرعب، مسوقين له على أنه إله رحيم.

قصة عذاب القبر وما لحق به من تصورات أسطورية عن مقارع من حديد ونار لا تتوقف، وثعبان أقرع يضرب الكائن المسكين الذى هو المسلم تارك الصلاة ضربة فيهوى به فى الأرض سبعين خريفا لا تساوى شيئا أمام رعب وفزع ما ورد فى حديث الإسراء والمعراج، وهو حديث رواه ابن عباس وموضوع جملة وتفصيلا، بل كان هذا الحديث مدخلا منطقيا جدا لنفى قصة الإسراء والمعراج التى يصر مصدقوها أنها حدثت بالروح والجسد، مستندين إلى أن الله خاطب الرسول فى القرآن قائلا: «سبحان الذى أسرى بعبده»، ولا يقال على الإنسان «عبده» إلا إذا كان بالروح والجسد، وهو منطق متهافت للغاية.

فى حديث الإسراء والمعراج إشارات منها أن الرسول طلب الاطلاع على جهنم، ولما كشفت له فإذا هى سوداء مظلمة ممتزجة بغضب الله، وفيها كما ورد فى الحديث سبعين ألف بحر من غسلين وسبعين ألف بحر من غساق، وسبعين ألف بحر من قطران، وسبعين ألف بحر من رصاص مذوب، على ساحل كل بحر ألف مدينة من نار، فى كل مدينة ألف قصر من نار، فى كل قصر سبعون ألف تابوت من نار، وفى كل تابوت سبعون ألف صندوق من نار، وفى كل صندوق ألف صنف من العذاب.

ليس هذا فحسب.

فطبقا للحديث رأى الرسول فى جهنم حيّات كأمثال النخل الطويل، وعقارب كأمثال البغال، وسبعين ألف بئر من زمهرير.

هذا هو الوصف المادى لجهنم كما وردت فى حديث الإسراء، ما بقى كان أفزع، فللتعذيب فى جهنم أشكال وألوان، منها على سبيل المثال، فالنساء الباكيات الحزينات ينادين فلا يجبن ويتضرعن فلا يرحمن، لأنهن يتزين لغير أزواجهن، ونساء عليهن سراويل من قطران، وفى أعناقهن السلاسل والأغلال لأنهن يعاملن أزواجهن باستخفاف، ونساء معلقات من شعورهن ويغلى دماغهن كغلى القدور لأنهن لا يغطين شعورهن من الأجانب، ونساء معلقات بشعورهن ومكبلات من أثدائهن بكلاليب من نار، لأنهن يرضعن أولاد الناس بغير إذن أزواجهن، ونساء صم وبكم وعمى فى تابوت من نار يخرج من دماغهن مثل الدهن من مناخيرهن وأبدانهن منتنة تتقطع من الجذام والبرص، لأن أولادهن من غير أزواجهن.

للرجال نصيب أيضا، ففى النار رجال منقلبون على وجوههم والملائكة يضربونهم بمقاميع من حديد، لأنهم لواطيون يأتون الذكران من دون العالمين، ورجال يرمون بشهب من نار فتقع فى أفواههم وأبصارهم وتخرج من أقفيتهم، لأنهم يبهتون الناس ويرمون بينهم الفتنة.

الحديث موجود بالكامل يمكن أن تعود إليه فى كتب الحديث على مواقع الإنترنت، أردت فقط أن أشير إلى بعض ملامحه، وتبقى عدة ملاحظات:

أولا: العذاب الأكبر فى الحديث موجه إلى النساء، وهو أمر طبيعى، لأن واضع الحديث رجل يسيطر فكره الذكورى على تصوراته للدنيا والآخرة، فالرجال ليسوا أكثر طهارة من النساء، لكن العذاب لا بد أن يكون من نصيب المرأة وحدها، وهو نوع من إخضاعها أيضا، ولذلك لم يكن غريبا أن ينسب إلى الرسول حديث يشير فيه إلى أن أغلب أهل النار من النساء.

ثانيا: هناك مبالغة فى طريقة تصوير النار، وكأن من نسج هذا التصور يريد أن يقول إن الإله القوى لا بد أن يصنع نارا بهذا المستوى، وهو تصور يليق أيضا بمواطن صحراوى خياله واسع جدا، يضع كل أشكال وصنوف العذاب لتتسق مع بيئته التى نشأ فيها.

ثالثا: هذه التفاصيل المزعجة عن النار وما يدور فيها على هذا النحو لا يشكك فقط فى الحديث الذى رواه ابن عباس الذى يتم الترويج له على أنه حبر الأمة، ولكن يشكك فى رحلة الإسراء والمعراج نفسها، فليس معقولا أن تكون الرحلة التى قيل إنها للترويح عن الرسول بعد طرد أهل الطائف له، حالة من استعراض طابور شرف الزبانية.

رابعا: هذا نموذج فقط من نماذج رسم صورة الله، يريدونه إلها غاضبا قويا يمعن فى تعذيب عباده، رغم أنه تعهد برحمتهم، يضعون السيف فى يد الله ويقفون به على قارعة الطريق ليقطع عنق كل من يعصاه، لأنهم يعرفون أنهم بهذه الطريقة وحدها يمكن أن يركبوا على رقاب العباد ويخضعوهم.

الله الذى نشعر به أمن ونحن خائفون وسكينة ونحن مفزوعون، لا يمكن أن يكون ساديا إلى هذه الدرجة، وأعتقد أنه يطل علينا من عليائه مشفقا على هؤلاء الذين يرهقون أنفسهم فى إثبات عذابه، وهؤلاء الذين يجتهدون فى نفيه، فالله ليس كذلك، ولتذهب كل التفاصيل إلى الجحيم.

(٦)
امنعوا النقاب

المواجهة صعبة، ما فى ذلك شك، فأن تعرف الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، أمر بالغ التعقيد، قد تلتمس لنفسك مساحة من الضوء ترشدك لما تريد، وتتمسك بما ثبت فى التراث الإسلامى من أن " الإثم ما حاك فى صدرك وخشيت أن يطلع عليه الناس"، فإذا ضاق صدرك عليك وتحرجت من أن يعرف الآخرون ما تفعله فأنت آثم، وإن كنت تتباهى بما تفعل، وتريد الدنيا كلها أن تعرف، فأنت على حق.

لكن هل تعتقد أن الأمر ينتهى بك عند هذا الحد، فتنتهى المشاكل، وتصفو الدنيا لسكانيها؟

أعتقد أن الأمر أكثر مشقة وتعقيدا من هذا.

فى تراثنا الشعبى يقولون إن الله عندما أراد أن يوزع الأرزاق فعل ذلك بالنهار، ولأن كل منا رأى رزق غيره، فهو لا يرضى برزقه أبدا، ويسعى إلى زيادة هذا الرزق اعتقادا منه أنه مظلوم، وعندما أراد الله أن يوزع العقول فعل ذلك بالليل، فلم ير أحد عقل أحد، ولذلك فالجميع يرضون بعقولهم، ويعتقدون طوال الوقت أنهم على صواب، حتى لو قالت لهم الدنيا كلها عكس ما استقرت عليه أنفسهم واستراحت له أرواحهم.

هنا تحديدا يكمن الصراع الذى لا ينتهى.

كل منا يعتقد أنه على حق، ولا يكتفى بهذا بل يريد أن يفرض هذا الحق على الآخرين، ولأنه لا أحد يستجيب لحق غيره، كان مهما أن تظهر

القوة، ليفرض من يملكها ما يشاء على من يريد، وهذه هى القصة كلها، يقولون إن البقاء للأقوى، ليس لأنه على حق، ولكن لأنه الأقوى فقط.

اقرأ كل الصراعات التى دارت على طول التاريخ وعرضه، لن تجد فيها محلا لحق ولا لباطل، المحل كله للقوة التى تحسم كل شئ، وما عادها باطل مطلق.

من بين التنظيرات الكثيرة التى كنت معجبا بها للشيخ الشعراوى، أنه لا يوجد صراع بين حق وباطل إلا وينتصر الحق فى النهاية مهما طال الزمن، لأن سنة الله فى الأرض اقتضت أن يقف دائما إلى جوار الحق، وإذا كان الصراع بين باطل وباطل، فإن الله يرفع يديه عن المتصارعين، فينتصر من يمتلك الأسباب.

كنت مقتنعا تماما أن هذه القاعدة صحيحة، لكن ما جرى ويجرى على الأرض لا يقول ذلك إطلاقا، أو لأكن من حزب النوايا الحسنة، فإن الله فى الغالب رفع يده تماما، وترك الناس يتصارعون، تاركا من يملك القوة والأسباب ليحسم معاركه بنفسه.

لكن المفزع فى الأمر أن الجميع يستخدم اسم الله فى معركته، محاولا أن يوحى للآخرين أن الله معه.

هل لنا أن نقترب من الصورة أكثر.

قبل دقائق من مذبحة " شارلى ابدو" الفرنسية، كان كل طرف يتعامل مع نفسه على أنه صاحب الحق، الرسامون الذين صعدت أرواحهم إلى السماء، كانوا يعتقدون أنهم ينقذون العالم من فاشية الأديان، ويكشفون الفساد السياسى والفكرى الذى أصبح مسيطرا على كل شئ من حولهم، ليس فى فرنسا فقط، ولكن فى العالم كله، والذين حملوا السلاح ليسفكوا الدماء كانوا يعتقدون أنهم على حق فى تنفيذهم لحد الله فيمن يرونهم تجاوزوا فى حق الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم.

هل هناك لحظة جمعت بينهما، مؤكد أن من قتل نظر فى عينى من قتله، تطلع إلى ملامحه، أحس بالدهشة من تصاعد أنفاسه، قد يكون سمع سؤاله: لماذا تقتلنى؟، من مات يعتقد أنه قتله لأنه على حق، ومن قتل يعتقد أنه فعل ما فعل لأنه على حق، وبين النظرات الزائغة تضيع حقيقة كل شئ.

قد يكون من الصعب علينا أن نعيد صياغة الأديان من جديد، أو لنكن أكثر دقة، قد يكون من المستحيل أن نضع حدا فاصلا للتفسيرات والتأويلات الكثيرة التى سقطت الأديان التى من المفروض أن تكون سمحة فى مستنقعها، ولذلك لا حل أمامنا إلا أن يحكمنا القانون، وأن تكون هناك قوة لتنفيذ هذا القانون.

عندما نضع الله فى المعركة، عليك أن تتأكد أن من يستطيع أن يكذب أكثر باسم الله سيكون المنتصر، ولذلك ليس علينا إلا أن نخرج الله من المعركة، وهو الأصلح لديننا ودنيانا.

ما علاقة ذلك كله بالقضية الأساسية التى نطرق بابها هنا وهى دعوتنا لمنع النقاب.

إذا تعاملنا مع النقاب على أنه جزء من الدين فلن نقترب منه، فليس من حقنا أن نقترب من فريضة الصلاة، أو مناقشة شكل وفترة الصيام، أو التعديل فى مناسك الحج، أو الاعتراض على نسب الزكاة، فكلها فروض أساسية لا يستقيم إسلام الإنسان إلا بها، لكن من حقنا أن نقف فى طريق النقاب لأنه جزء من ثقافة وميراث اجتماعى، ليس علينا أن نناقشه فقط، ولكن أن ننفضه نفضا.

لكن لماذا النقاب ؟

فالقصة طويلة، والمعارك حولها لا تزال ساخنة ومتجددة لا تنتهى أبدا.

أقول لك: ما دعانا إلى اختراق محظور النقاب، هو الاستخدام السياسى له، والذى له تاريخ طويل فى مصر، تحول خلاله إلى أن أصبح خطرا على الأمن القومى المصرى، فبعد أن فرغ الإخوان المسلمون وكل حلفائهم من حيلهم فى مقاومة الثورة التى أطاحت بهم من السجون، بدأوا فى استخدام المنقبات لزراعة المتفجرات، وتركها فى الشوارع، تسير المنقبة مستخدمة النقاب فى إخفاء ما تحمله، وهو ما لا يثير الشك أو الشبهات فيها .

المنقبة إذن تحولت إلى مجرمة، والنقاب نفسه تحول إلى جريمة.

ستقول: لا يجب أن نعمم الأمر، فلا يمكن أن نحكم على كل المنقبات بأنهن مجرمات لمجرد أن واحدة منهن شاركت فى الأعمال الإرهابية، وهو كلام منطقى، ويمكن أن نقبله تماما لو كنا فى ظروف اعتيادية، أما وأننا فى ظروف استثنائية، فلا مكان ولا قبول لأى كلام عادى.

ستحتج أننا بذلك نخالف الإسلام ونعادى الشرع ونخرج على ما أراده الله للمرأة، سأقول لك وبوضوح، جرب وصفة أخرى معنا، لأننا على قناعة تامة أن النقاب ليس إلا مرحلة من مراحل محاولات الرجل السيطرة على المرأة وبشكل كامل.

لقد استخدم الرجال القرآن الكريم والأحاديث النبوية صحيحة وضعيفة فى حربهم لإخضاع المرأة وبشكل كامل دون سند من قرآن أو سنة يحتج الرجال على النساء على أنهن لابد أن يخضعن لهم، لأن الله سيسأل الرجل عن نساءه سواء كن زوجاته أو بناته، وطالما أن الله سيسأل الرجل عن المرأة، فلابد أن تطيع الأوامر وتنفذ دون نقاش، مخالفين فى ذلك النص القرآنى " ولا تزر وازرة وزر أخرى"، و" كل نفس بما كسبت رهينة"، لكن ولأنه لابد من سند للسيطرة والتحكم يستخدمون كتاب الله كما يحلو لهم.

يرغب الرجل فى إخفاء المرأة لأنه يعتبرها جزءا من ممتلكاته، بعضا مما يخصه، ولذلك يرفض أن ينظر إليها غيره، ومؤكد أنك تعرضت لمواقف عديدة أكدت ذلك، يظل الشاب يخرج مع خطيبته، تلبس ما تشاء، تتزين كما تريد، لكن بمجرد أن يكتب عليها يشترط أن ترتدى الحجاب، البعض يقولون لأنها وهى خطيبته فهو ليس مسئولا عنها أمام الله، أما وقد أصبحت زوجته، فهو يسأل عنها فلابد أن تكون طائعة، دون أن يجرؤ أحد على إعلان الحقيقة، وهو أن " عقد القرآن" بمثابة صك الملكية الذى يحمله الرجل، ليتصرف به فى كل ما يخص المرأة كيف يشاء.

النقاب إذن – ومن قبله الحجاب بالطبع – ليس إلا وجها من وجوه الصراع بين الرجل والمرأة، وكان الرجل ذكيا جدا عندما لجأ إلى الدين ليستند إليه، وهى الحيلة التى لم تجد المرأة مخرجا منها حتى الآن، فرغم أن هناك اجتهادات عديدة تقول بعدم فرضية النقاب، إلا أن الأصوات الزاعقة تنتصر فى النهاية لا لشئ إلا لأنها زاعقة.

يمكن أن أثبت هنا آراء كثير من الأئمة والفقهاء، منهم الشيخ الإمام محمد عبده والمحدث الشهير الذى يرفعه السلفيون درجات عالية فى القيمة والتقدير ناصر الدين الألبانى، حيث يرى أن النقاب ليس واجبا من أى وجه من الوجوه، ويمكن أن أثبت هنا فتوى شرعية خرجت من دار الإفتاء المصرية مذيلة بتوقيع الدكتور العالم الجليل على جمعة والتى قال فيها: " أما نقاب المرأة الذى تغطى به وجهها وقفازها الذى تغطى به كفها، فجمهور الأمة على أن ذلك ليس واجبا وأنه يجوز لها أن تكشف وجهها وكفيها أخذا من قول الله تعالى "ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها" حيث فسر جمهور العلماء من الصحابة ومن بعدهم الزينة الظاهرة بالوجه والكفين، نقل ذلك عن ابن عباس وأنس وعائشة رضى الله عنهم، وأخذا من قوله تعالى " وليضربن بخمرهن على جيوبهن". فالخمار هو غطاء الرأس، والجيب هو فتحة الصدر

من القميص ونحوه، فأمر الله تعالى للمرأة المسلمة أن تغطى بخمارها صدرها، ولو كان ستر الوجه واجبا لصرحت به الآية الكريمة، ومن السنة المشرفة حديث عائشة - رضى الله عنها - أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق، فاعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه"، إلى غير ذلك من الأدلة المصرحة بعدم وجوب ستر الوجه والكفين.

لكن هل بعد أن أثبت لك آراء وفتاوى من هذا القبيل، ستقتنع بأن الأمر ليس شرعيا بالمرة، ولذلك عندما نطرح فكرة إلغاء النقاب فلا يجب أن تتشنج وتعتقد أن هناك مؤامرة كبيرة على الاسلام؟

بالطبع لن يحدث ذلك، وعليه فلا تهتم كثيرا بما أشرنا إليه، ولا ما نقلناه عن دار الإفتاء التى لم تغير رأيها حتى الآن، لأننا سندخل بك إلى مرحلة اهم، وإلى مساحة أرحب، وإلى مناقشة ما يشغلنا على الأرض بصرف النظر عما تقوله الآيات والأحاديث التى يصر مفسروها على تأويلها كما يشاءون لا بما يفيد الناس.

كان الشيخ المراغى أحد شيوخ الأزهر الكبار المجددين يقول: قولوا لى ماذا يفيد الناس، آتيكم عليه بدليل من القرآن الكريم، كان يثق أن القرآن ما جاء إلا من أجل مصلحة الناس وراحتهم وسعادتهم، لكن يبدو أن هناك من يرفض هذا المنطق، فهو ينظم حياة الناس على فهمه، حتى لو كان هذا الفهم فيه الضرر والشر.

ما ينفع الناس الآن هو أن يتم تشريع واضح وصريح بمنع ارتداء النقاب فى الأماكن العامة.

ستقول إن هذا القانون غير دستورى، لأنه يخالف ما يعمل عليه الدستور من حماية حرية الأفراد، سأقول لك من هذه النقطة تحديدا

obeikandi.com

يمكن أن نتحدث، فالحرية التى تتحدث عنها ليس حكرا على من تريد ارتداء النقاب، لكن الحرية للجميع، وعندما تتصادم حرية فرد مع حريات وحياة الجماعة، فهذه الحرية لا حماية لها على الإطلاق.

لقد شنت الصحافة حملات مكثفة ولسنوات طويلة على من تعمل طبيبة أو ممرضة وهى ترتدى النقاب؟، تساءلنا كيف لمريض لا يرى وجه من يعالجه؟، وتساءلنا كيف لتلميذ صغير يجلس لتلقى العلم على من لا يرى وجهها؟، أليس من حق هذا التلميذ أن يتعرف على وجه معلمته؟، كيف لها أن تتواصل معه، أن تؤثر فيه، أن تقنعه، أن تساهم فى تشكيل شخصيته، وهى فعلا غريبة عنه؟، ثم كيف لطالبة فى الجامعة أن تدخل الإمتحان دون أن يتعرف أحد على شخصيتها الحقيقية؟، ستقول يمكن أن تكون هناك مراقبات من النساء يتعرفن على المنقبة وينتهى الأمر، سأقول لكن، ولماذا نكلف أنفسنا عناء الشك والريبة، لماذا لا تستقيم الأمور كما تستقيم لدى كل خلق الله؟

إننى أعذر من تتنازل تماما عن شخصيتها، تخفى وجهها طواعية حتى لا يراها الآخرون، قد احترم رغبة من تريد العزلة والابتعاد عن الناس، لكن من تريد ذلك فعليها أن تعتزل فى بيتها، لا أن تخرج علينا وتفرض ما تريد فى الوقت الذى تشاء، وعندما يعترض أحد يقولون إنه يحارب الله ورسوله.

لن أخوض فيما تحت النقاب، فأنا لا أدعو إلى حظره بالقانون لأسباب أخلاقية، فأن يستغل البعض النقاب لارتكاب أعمال منافية للآداب، فهذا شانهم، ولا يمكن أن يكون حجة على زى يمكن أن يكون جزءا من ثقافة مجتمعات معينة، لكنه أبدا لا يتناسب مع ثقافتنا، ولكننى فقط أتحدث عن الاستخدام السياسى للنقاب.

قرار حظر النقاب بقانون واضح لا يقبل تأويلا ولا تفسيرا، لا يحتاج مناقشات عديدة، لا يحتاج تخريجات فقهية، ولا مجادلات عقيمة، ولكن

يحتاج إلى شجاعة فى اتخاذ القرار، وهنا أتوقف قليلا عند دعوة السيسى لشيوخ الأزهر وعلمائه أن يساهموا فى تطوير الخطاب الدينى، تأسيسا على أن هناك نصوص تعادى الإنسانية كلها، قد يكون ما فعله صحيحا، لكن الجهة التى توجه إليها بالطلب كانت خاطئة تماما، فعلماء الأزهر مستفيدون تماما من ركود الأوضاع على حالها، ولذلك ليس أقل من اتخاذ مجموعة من الإجراءات، وسن مجموعة من القوانين التى يكون من شأنها تخفيف حدة مظاهر السيطرة الدينية على مفاصل حياتنا.

هذا هو الاختبار الحقيقى الذى يجب أن يضع السيسى فيه نفسه، وأعتقد أن قانونا بمنع النقاب يخدم الأمن القومى أولى بالرعاية الآن، فلا داعى لنتأخر، لأننا لو تركنا أنفسنا للمناقشات والحوارات والمؤتمرات والبحوث، فلن ننتهى أبدا، ولن يتغير شئ لا الآن ولا غدا، فهل نمتلك الشجاعة لنفعل ذلك؟ السؤال يحتاج إلى إجابة سريعة وعملية.

أغلقوا كل نوافذ الخوف من جماعات لا ترى إلا أنفسها، فالإخوان والسلفيون ومن يحذون حذوهم يتعاملون مع النقاب على أنه وسيلة، ، وكم كان مخزيا وباعثا على السخرية عندما استخدم قادة الإخوان النقاب يتخفون تحته ليدخلوا ويخرجوا من اعتصام رابعة العدوية كما يشاءون، فى حالة امتهان كاملة للنقاب الذى يعتبرونه جزءا من الإسلام ولا يتم إسلام المرأة إلا به.

بقيت نقطة أعتقد أنها مهمة، قد يعطل الخوف صدور هذا القرار، وقد يكون هذا مفهوما، لكن هناك ما قد يعطله أيضا وهو النفاق الدينى الذى يمكن أن تمارسه السلطة، فلا تقترب من هذا الملف حتى لا يقال إنها تعتدى على الإسلام، وكثيرا ما تورطت حكومات سابقة فى اتخاذ قرارات وشن قوانين من أجل كسب رضا الناس على حساب صحيح ديننا.

الآن الأمر يختلف، ويا كل سادتنا الكبار فى مراكز صنع القرار وصياغة السياسات والذى منه، لا تخافوا ولا تنافقوا يرحمكم الله.

(٧)
حفل لغناء القرآن على مسرح الأوبرا

مقطع فيديو لقيط يعرض خلال ثلاثة دقائق وثلاثين ثانية فقط لمطرب أوبرالى يغنى بعض آيات من القرآن الكريم تحديدا الآية الثالثة عشر من سورة الحجرات: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم، إن الله عليم خبير" .

خلف هذا المطرب تقف اوركسترا كاملة، ومايسترو يقود العمل بتركيز شديد، وبعد أن ينتهى من الغناء يقابل تصفيقا هائلا من الموجودين الذين يتجاوز عددهم المئات، ولا يخرج من المسرح إلا بعد أن يقدم له أحدهم بوكيه ورد.

أقول إن المقطع لقيط لأنه لا أحد على وجه القطع يستطيع أن يقول لنا شيئا عن اسم هذه الفرقة، ولا عن اسم هذا المطرب، ولا متى كانت هذه الحفلة من الأساس.

المعلومة الوحيدة التى حصلت عليها وأنا أفتش عن أصل هذا المقطع كانت منشورة فى مدونة منسوبة لسمير الجنيد، ولا تسألنى كثيرا عنه لأن سيرته الذاتية الموجودة على مدونته لا توجد فيها أى معلومات عنه، ثم أن الجنيد نفسه ليس موضوعنا.

يقول عما جرى: ظهر مقطع فيديو يعرض فرقة أوبرا إندونيسية تقوم بأداء مقطوعة موسيقية بدأت بـ "بسم الله الرحمن الرحيم" وتليه مباشرة آيات من القرآن الكريم من سورة الحجرات ابتداءً من الآية الثالثة عشر منه، وكان أول ظهور لهذا المقطع عبر قناة يوتيوب باسم Almasdar

KSA وبعد وصول عدد مشاهدات الفيديو إلى أكثر من ٦٨ ألف مشاهدة تم حذف الفيديو دون معرفة الأسباب التى دعت لذلك.

ولكن ما أن بدأت قنوات أخرى بنشر المقطع حتى شن متدينون من إندونيسيا وخارجها هجوما على المؤدين لهذه المقطوعة مستندين لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق والكبائر، فإنه سيجيء أقوام من بعدى يرجعون القرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنه". وقد حكم الألبانى رحمه الله على هذا الحديث بالضعف وذلك فى ضعيف الجامع تحت رقم ١٠٦٧.

توقع عدد من المعلقين على الخبر الذى نشرته إحدى الصحف الإندونيسية بأن المشايخ والمتدينين سيكون لهم ردة فعل حول ظهور هذا الفيديو، ولكن لم يقابل هذا الأمر إلا الصمت.

كان يمكن أن يعبر هذا الخبر كما يعبر غيره، خاصة أن المواقع الإلكترونية تعاملت معه كمجرد إفيه، عرضت المقطع دون أن تعلق، واكتفى البعض بمتابعة الموضوع على أنه علامة من علامات الساعة، وأن الرسول بشر بما جرى، ليس بالحديث الذى ضعفه الألبانى فقط، ولكن بحديث يقول نصا: "إن من علامات الساعة أن يتخذ القرآن مزامير أحدهم، ليس بأقرئهم ولا أفضلهم، ليغنيهم غناء"، ثم هناك حديث آخر مسنود إلى الإمام الترمذى رضى الله عنه يقول الرسول فيه: "اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الكتاب والفسق، فإنه سيجئ بعدى أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم".

لا يمكن أن يكون هذا حديثا صحيحا على الإطلاق، فلغته عنصرية، ومضمونه لا يمكن أن يكون معبرا عن رسول يدعو إلى المساواة ولا يحتقر الآخرين.

ما حدث فى أندونيسيا – رغم أننا لا نعرف على وجه التحديد متى جرى – لا يمكن أن نعتبره علامة من علامات الساعة، فربما يكون الغناء بآيات القرآن الكريم من بين أسرار هذا الكتاب المعجز، خاصة أنك عندما تستمع إلى القرآن وهو مغنى عبر مطرب أوبرالى لن تنزعج على الإطلاق، ولن تزعجك الآلات الموسيقية المصاحبة له، فما جرى أن أداء المطرب يقترب كثيرا من أداء مشاهير المقرئين المصريين، ولم يزد فقط إلا الموسيقى، بل إنه يؤدى آيات القرآن الكريم بطريقة أكثر خشوعا من كثيرين ممن يقرأون القرآن فى دول بعينها يتعاملون مع القرآن بلا روح على الإطلاق.

نعرف محاولات كثيرة للحنين ومطربين مصريين حاولوا أن يغنوا القرآن الكريم، وهذا ملف كبير جدا، لكن لم يجرؤ أحد أن يفعلها، أم كلثوم اكتفت بقراءة بعض الآيات فى فيلم سلامة، قراءة يمكن أن تنافس بحلاوتها وطلاوتها محمد رفعت وعبد الباسط عبد الصمد، واكتفت بذلك رغم أنها كانت تحلم بغناء القرآن، على الحجار طلب الإذن من الأزهر لتسجيل القرآن الكريم بصوته، لكنه تسجيل أيضا ينافس به مشايخ التلاوة، أى أنه سيمنح القرآن صوته فقط، مبتعدا عن مساحة تلحين آياته وغنائها، لقد تراجعوا جميعا عن تحقيق حلمهم لأنهم يعرفون أن المؤسسة الدينية الرسمية والشعبية ستقلب الدنيا، كما أن منهم من امتنع عن غناء القرآن بقناعة شخصية داخلية منه بأن ما سيقدم عليه حرام تماما.

هنا السؤال: وهل غناء وتلحين القرآن بالطريقة التى أدت بها الفرقة الإندونيسية حرام؟ (يمكن أن تستمع لمقطع الفيديو عبر اليوتيوب)، ما أطمئن إليه أنه لا حرام، ولا يوجد ما يغضب الله فيما جرى، فبعد أن استمع الموجودون فى قاعة المسرح لأداء المطرب الأندونيسى لآيات القرآن صفقوا بشدة، دليل على أنهم استمتعوا بالغناء وبالسماع إلى آيات القرآن مغناة، وأعتقد أن الله لا يمكن أن يحرم شيئا يسعد البشر.

ما الذى يمكن أن يحدث لو أن فرقة القاهرة السيمفونى قدمت حفلا يغنى خلاله مطرب آيات من القرآن ووراءه الأوركسترا بكامل آلاتها الموسيقية؟

لن يحدث شئ على الإطلاق، لن ينهدم الدين، ولن ينتقص أحد من القرآن كتاب الله المقدس شئ، لا يوجد دليل واحد على أن هناك طريقة واحدة لأداء القرآن، اتركوا كتاب الله يفسح لنا عن أسراره، واتركوا الناس يسعدون بكتاب ربهم على طريقتهم الخاصة.

obeikandi.com

(٨)
أغانى عمر بن الخطاب

الأسوياء نفسيا لا يتحدثون كثيرا فى مثل هذه الأمور، لأنهم يعتبرونها من البديهيات، فلا أحد مستقر نفسيا يمكن أن يسأل هل الموسيقى حلال أم حرام؟ أو يناقش حكم الإسلام فى الغناء، وما الذى يجب أن نسمعه أو لا نسمعه.

لكن ولأننا واجهنا طويلا قوما من غير الأسوياء نفسيا، فقد أجبرونا على النقاش الطويل حول حرمة الموسيقى وفسوق من يغنى، فقد كان طبيعيا أن يصدر كتاب لمحمد قابيل عن الهيئة المصرية للكتاب يحمل عنوان " هل الموسيقى حرام؟".

كان من الأولى أن يكون العنوان واضحا وصريحا ومباشرا وحاسما، وهو أن الموسيقى ليست حراما، لكن الفكرة لا تزال مترددة واليد لا تزال مرتعشة، خاصة أن البحث المميز الذى قام به قابيل وهو موسيقى وكاتب صحفى، يؤكد بالأدلة الشرعية أن الموسيقى ليست حراما على الإطلاق.

من بين ما أورده قابيل بين يدى بحثه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما عاد منتصرا من إحدى غزواته جاءته جارية سوداء، وقالت: يا رسول الله إنى كنت قد نذرت إن ردك الله سالما، أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال لها: إن كنتِ نذرتِ فاضربى وإلا.

أما المتشقف الزاهد المجاهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان محبا للغناء بالصوت الجميل، فقد مر بدار قوم فسمع ضجة فقال: ماهو؟ فقيل: عرس، فقال: وما يمنعهم أن يخرجوا بغرابيلهم فإنها إمارة العرس (الغربال نوع من الدفوف استخدم فى البادية وفى فجر

الإسلام)، وأذن عمر لرباح المعترف أن يغنى لأصحابه الذين كانوا معه فى طريقه إلى الحج ليقصر عنهم الطريق والسير ويسهل صعوبة الصحراء المقفرة، وغنى رباح للحجيج ومن بينهم كثير من الصحابة والتابعين والأنصار، ولم يكن عمر بن الخطاب راضيا عن الموسيقى فحسب، بل كان من ذوى الرأى والتميز فيها.

والثابت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكن يكره الموسيقى، لكنه كان يكره المخنث منها، ومن بين ما يرويه ابن الفقيه الهمذانى أن عمر سمع مرة قيانا يضربن بالدفوف بغناء (لا يعفو الله عنه) فكان نصيبهم منه قسوة التأنيب والقرع بالعصا.

المفاجأة التى يكشف عنها محمد قابيل فى كتابه أن هناك من ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه لحن أغنية بنفسه، وهو ما ذكره الدكتور محمود أحمد الحفنى فى مقال نشر فى المجلة الموسيقية عام ١٩٢٣ العدد ١٢ بعنوان " عمر بن الخطاب فى الموسيقى" .

انتظرت من مؤلف الكتاب أن يبحث عن مقال الدكتور الحفنى ويعيد نشره فى كتابه، لكن يبدو أنه اكتفى بالمعلومة التى لديه، وأعتقد أن البحث عن هذا المقال وإعادة نشره سيكون مفيدا جدا، للتأكيد على أن كبار الصحابة وتحديدا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكونوا ضد الموسيقى والغناء، وأن الحديث عن أن عمر كان يكره الغناء ولا يرحب به لم يكن إلا من باب النصب الدينى ليس إلا.

خلاصة ما يذهب إليه محمد قابيل أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحرم الغناء، لكنه شغل بنشر الدعوة الإسلامية، كذلك فعل صحبه من الخلفاء الراشدين، فلم يتوافر الاستقرار الاجتماعى والاقتصادى اللازم لازدهار الموسيقى، وتم ذلك فى عصر الخليفة عثمان بن عفان حيث احتلت الموسيقى مكانة رفيعة فى مجالس العرب إلى جانب الشعر والأدب.

obeikandl.com

وقد أقبل الإمام أحمد بن حنبل على مجلس القاضى إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن بن عوف لسماع غنائه، وهو الإمام الذى اقتدى به كثير من المسلمين بمذهبه وحجته القوية الصادقة، وروى عن الإمام الشافعى أنه سمع الغناء أيضا، فقد مر مع أحد أصحابه وهو إبراهيم بن إسماعيل على دار قوم تغنيهم جارية بصوت جميل، فقال الشافعى لصحبه: ميلوا بنا نسمع، ودخلوا الدار جميعا بقصد السماع، فلما انتهت الجارية من الغناء قال الإمام لصاحبه إبراهيم: أيطربك هذا؟ فرد صاحبه: لا، فقال له الإمام: مالك حسن، لقد طرب الإمام وجرد صاحبه من الحسن لأنه لم يطرب من الغناء الحسن.

obeikandl.com